الإسلام دين وثورة
فاعلية الشباب فى ربيع الثورات العربي

ياسر كمال الغرباوي

الدوحة – قطر
٢٠١٣

تـمهـيـد

فجر جديد

أن تسترد أمة عافيتها بعد معاناة مع المرض،أن تتحرك شعوب بعد طول سُبات، أن تغني أمة للحرية بعد طويل نواحها على الظلم ،أن يقود شباب الثورة بعدما ظن الجميع أنهم انحرفوا ،أن تجري الدماء في شرايين بدا للمراقبين أنها تصلبت، أن تنتفض مجتمعات قيل عنها أنها خارج حركة التاريخ، كل ذلك وأكثر حصل في ربيع الثورات العربي التيبدأتبثورة الياسمين في تونس الخضراء، وانتقلت شعلتها إلى ثورة الكرامة في مصر العروبة، وتجسدت بطولتها في ثورة (١٧ فبرابر) في ليبيا عمر المختار، وتجلت سلميتها في ثورة اليمن السعيد، وتفرد صمودها في ثورة الشعب السوري البطل.

هذه الثورات التي أبهرت العالم من حيث عدد الجماهير المشاركة، وقدرة الحسم الخاطفة وبراعة المناورة المذهلة وحجم التضحيات المُقدمة، والحرص علي السلمية الحاكمة وعدم الوقوع في فخ الإنتقام الأعمى من المستبدين وأعوانهم.

وهم متبدد

كل هذه العناصر السابقة جعلت بعض المراقبين غير المنصفين يعتبرون أن هذه الثورات العربية ماهي إلا نبتاً غريباً لا علاقة له بتاريخ المنطقة وثقافتها العربية والإسلامية،معتبرين أن هذه الثورات حصاد مستحق لنشر قيم الحضارة الغربية - الحرية والعدالة والمساواة- وسط الشباب العربي المثقف الذي فجّر الثورة والذي تلقى تعليمه في الجامعات الغربية الموجودة في داخل العالم العربي أو خارجه.! وهذه دعوى متهافته تحاول سرقة هذا المنجز الحضاري الذي أبدعته الشعوب العربية بالدم والألم عبر تراكم التضحيات والنضالات الدامية علي مرّ العصور والدهور.

فهذه الثورات ما هي إلا تتويج لجهاد المجتمعات العربية المتواصل ضد الاستبداد والقهر والقمع المتواصل من قبل الأنظمة الطاغية التي ساندها الغرب ووقف بجوارها علي طول الخط داعماً ومناصراً ومؤيداً بالمال والسلاح والدعم السياسي والأمني.

صناعة عربية

إن ربيع الثورات العربية ماهو إلااستجابة لصرخة الثائر"عبد الرحمن الكواكبي" التي سطرها في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"،وتلبيةً لنداء ثائر الشرق" جمال الدين الأفغاني"، وترجمة لأشعار"أبي القاسم الشابي"؛واستلهام لسيرة بطل الصحراء الشيخ "عمر المختار"،وتجلي رائع لفدائية الشهيد "سيد قطب"،وقبل كل ذلك هي إنعكاس لفلسفة الإسلام الكبرى المهيمنة علي ثقافة ووجدان الشعوب العربية. فالإسلام ثورة تحريرية ،متجددة العطاء،عميقة الأغوار..ألّفت بين شعوب المنطقة عندما رفُعت عنهم إصرالطواغيت،وأحيت طاقاتهم الخلاقة والمبدعة عندما حررتهم من الضغوط والقيود والأغلال..ثم قذفت بهم شهاباً منيراً لطريق العقل،حارقاً لقوى الطغيان التي تحول بين هذا العقل وبين حريته في الإختيار.مما سبق يتجلى لنا أن ثورات الربيع العربي منتج عربي خالص منفتح علي ثقافات العالم من باب الوسائل والإجراءات، لكنه منحاز لقيم حضارته العربية والإسلامية إستلهاماً وتطبيقاًووفاءً؛ وهذا ما حاولت عرضه في هذا الكتاب من خلال الرصد الميداني والإطلاع المكتبي والنقاش الهادىء والمقابلات المكثفة مع بعض صناع الحدث من الشباب المُفجر للثورة والمناضل من أجلها.

تحية للشهداء

وأرى من الواجب عليّ وأنا أقدم هذا الكتاب أن أتوجه أولاً إلى الله سبحانه بأخلص الدعوات والإبتهالات ليجزي شهداءنا البواسل من الشباب والرجال والنساء والأطفال أحسن الجزاء، وأن ينزلهم في الفردوس الأعلى جزاء ما قدموا من تضحيات وبطولات طاهرة في سبيل رفعة الأمة وتحررها من الاستبداد والقهر والظلم ،فعبر دمائهم الزكية التي سالت في ميادين التغيير والتحرير في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا وُلدت الأمة الإسلامية والعربية من جديد وتنسمت عبير الكرامة والعزة و السؤدد.

ولعل هذا الكتاب يساهم بدرجة متواضعة في تخليد ذكرى هؤلاء الشهداء عبر دراسة هذه الثورات والوقوف علي إبداعاتها المتنوعة التي مكنتها من إحراز النصر علي المستبدين الطغاة وإسقاط أنظمتهم الفاسدة؛ومعرفة جوانب القوة في هذه الثوراتفاتُثبت وتُدعم؛ ومعرفة مواطن الخلل فيها فتُصوب بالنقد والعمل وتُسددبالمثابرة والجهد...والله المستعان علي ذلك.

محاولة بحثية

صفحات هذا الكتاب محاولة لتقديم قراءة عربية شابة لثورات الربيع العربي تجيب على أسئلة الواقع من قبيل:

لماذا قامت ثورات الربيع العربي ؟ ما هو دور الشباب فيها ؟

ما مدى فاعلية الشباب في إنتصارها ؟ ماهي علاقة هذه الثورات بالثقافة الإسلامية ؟

وهل ساهم الفن في إنتصار الثورة ؟ وماهي أهم التحديات التي تقف أمام الثورة ؟

وأخيراً ماهي إنجازات الثورة الرئيسية ؟

وقد جاء الكتاب في ثمانية فصول وفق الترتيب التالي :

- الفصل الأول : الإسلام والثورة.
- الفصل الثاني : أثر الإسلام في تغيير المجتمعات والشعوب.
- الفصل الثالث: الإسلام والشباب.
- الفصل الرابع : الشباب وثورات الربيع العربي.
- الفصل الخامس : الفنون وثورات الربيع العربي.
- الفصل السادس: بواعث ومظاهر ثورات الربيع العربي
- الفصل السابع : حصاد وتحديات ثورات الربيع العربي
- الفصل الثامن : نتائج وتوصيات الكتاب

وقد حرصت قدر الإمكان في هذا الكتاب علي تقديم إضاءة معرفية متنوعة ترصد ربيع الثورات العربية من عده جوانب متنوعة مستفيداً من الثقافة الإسلامية والعلوم الإنسانية ومن خبرات زملائي الباحثين والشباب المناضلين،سائلاً الله سبحانه وتعالى أن يُبارك في هذا الجهد المتواضع وأن يجد فيه الشباب العربي نفعاً وخيراً لهم ولأمتهم في القريب العاجل والمستقبل المنشود.

ياسر الغرباوي

الدوحة ـ قطر

١٥/ ٢/ ٢٠١٣

تعريف بأهم المصطلحات المستخدمه في الكتاب

١ ـ **حرب اللاعنف** : هو شنّ الصراع على الخصوم المعاندين من خلال التحكم المقصود والمخطط في أدوات القوة السياسية لتحطيم إرادة الخصم،بإستخدام أسلحة لاعنيفة قوية التأثير .[١]

٢ ـ**الصراع الصفري** : هو الصراع الذي ينتهي بالقضاء علي طرفي الصراع،حيث تتفكك بُنى ومؤسسات الدولة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية وتسود الفوضى العامة .[٢]

٣ ـ**الأيديولوجيا** : مجموعة من الأفكار المترابطة بدرجة أو بأخري،والتي تمثل أساساً لعمل سياسي منظم،سواء كان الهدف منه حفظ أو تطوير أوهدم نظام توزيع القوة القائم.[٣]

٤ ـ**الثورة** : هي العلم الذى يُوضع فى الممارسة والتطبيق،من أجل تغيير المجتمع تغييرًا جذريًا وشاملاً، والإنتقال به من مرحلة تطورية معينة إلى أخرى أكثر تقدمًا،الأمر الذى يتيح للقوىالاجتماعية المتقدمة فى هذا المجتمع أن تأخذ بيدها مقاليد الأمور،فتصنع الحياة الأكثر ملاءمة وتمكينًا لسعادة الإنسان ورفاهيته، محققة بذلك خطوة على درب التقدم الإنسانى نحو مثله العليا التى ستظل دائمًا وأبدًا زاخرة بالجديد الذى يُغرى بالتقدم ويستعصى على النفاد والتحقيق .[٤]

٥ ـ**الإستراتيجية** : نمط من الأهداف المحددة والأهداف المفتوحة والأغراض والسياسات الكبرى والخطط للوصول لهذه الأهداف.[٥]

٦ ـ**استراتيجية الإقتراب المباشر** : طريقة يتم فيها حشد قوى الحركة التغييرية في مواجهة نقاط ضعف النظام السياسي القائم ثم الدخول في مواجهة حاسمة تنتهي بالقضاء علي قوة أحد الطرفين .[٦]

٧ ـ**استراتيجية الإقتراب غير المباشر**: طريقة يتم فيها حشد قوى الحركة التغييرية في مواجهة نقاط ضعف النظام السياسي القائم من خلال المناورة وعدم الإصطدام المباشر بهدف إحداث فجوات في بنيان النظام السياسي وتفكيكه .[٧]

١- أحمد عبد الحكيم وأخرون – حرب اللاعنف – الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت - ٢٠٠٧
٢- نفس المصدر
٣- نفس المصدر
٤- محمد عمارة – الإسلام والثورة – دار الشروق – القاهرة
٥- جاسم سلطان – التفكير الإستراتيجي أم القري – ٢٠٠٥ ص٣٨
٦- أحمد عبد الحكيم وأخرون – حرب اللاعنف – الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت - ٢٠٠٧
٧- غازي اسماعيل – الرأي العام والعلاقات العامة – دار البشير – عمان -١٩٨٨

٨ -**الرأي العام العالمي** : الإتجاهات التي تسيطر علي أكثر من مجتمع واحد؛أو التي تعكس توافقاً في الموقف بين أكثر من وحدة سياسية واحدة ،وهو سمة من سمات المجتمع الدولي العام .[٨]

٩ -**الرأي العام**: ميول الناس إزاء قضية ما حينما يكونون أعضاء في نفس الجماعة الاجتماعية.

١٠ - **الاستبداد**: صفة للحكومة مطلقة العنان فعلاً أو حكماً، التي تتصرف في شؤون الرّعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محقَّقَين.[٩]

١١ - **ثورات الربيع العربي**:

الثورات العربية التي نجحت في الإطاحة برؤوس الأنظمة السياسية في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن ، والتي بدأت بحادثة إحراق الشاب محمد بوعزيزى نفسه يوم ١٢/١٧/ ٢٠١٠ ،ويُضاف لها الثورة الشعبية القائمة في سوريا الأن.

١٢- **القرآن** : كلام الله المنزل علي محمد -صلى الله عليه وسلم-المتعبد بتلاوته.[١٠]

١٣ -**السنة النبوية** : ما صدر عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم -من قول أو فعل أو تقرير.[١١]

١٤ - **الفقة الإسلامي :** العلم بالأحكام الشرعية العملية علماً مستمداً من الأدلة التفصيلية لهذه الأحكام.[١٢]

١٥ - **مقاصد الشريعة** : الغايات التي وضعت لأجل تحقيقها لمصلحة العباد.[١٣]

١٦ -**الدولة الدكتاتورية** : هي الدولة التي تقوم علي حكم الفرد أو القلة التي تسيطر علي الجماعة السياسية والغالبية وعلي إرادة الشعب.[١٤]

٨- نفس المصدر السابق.
٩- نفس المصدر السابق.
١٠- الكواكبي- طبائعالإستبدادومصارعالإستعباد-دار كلمات عربية – القاهرة –ص ٣٥
١١- مناع القطان – مباحث في علوم القرآن – مؤسسة الرسالة -١٩٨٣
١٢- عبد الوهاب خلاف – علم أصول الفقة – دار القلم الكويت ١٩٨٨-ص٤٢
١٣- محمد سليم العوا – الفقة الإسلامي في طريق التجديد – المكتب الإسلامي-بيروت ١٩٩٨
١٤- أحمد الريسوني – مدخل إلى مقاصد الشريعة-دار السلام ٢٠١٠-ص٧
١٥- أحمد سويلم العمري – أصول النظم السياسية –الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٧٦

الـفـصل الأول

الإســـــلام والـــثـــورة

الإسلام دين وثورة

الإسلام يحمل مقومات الثورة في أكمل صورها؛ ففيه النظرية الثورية التي وصلت إلى أعلى مستويات التنظير حتي أخذت شكل العقيدة،حيث التغيير الشامل القائم علي هدم كل رموز القهر والفساد السياسي والديني والاجتماعي في المجتمعات والدول؛"فالإسلام في غايته ووسيلته ثورة كبرى تتضاءل دونها نظرياً وعملياً وتاريخياًآثارالثورةالفرنسيةأوالثورةالروسية؛فهو ثورة بكل ما تحمل الكلمة من معنى..يزلزل الأوضاع الفاسدة،ويحطم صروح البغي والعدوان الشامخة،ويجدد معالم الحياة وأوضاعها،ويقيمهاعلي أثبت الدعائم وأكرم القوائم".[١٥]

فعلاقة الإسلام بالثورة والتغيير ليست علاقة هامشية إجرائية مؤقتة جاءت لفترة زمنية محددة وإنما هى علاقة تكوينية بنيوية ممتدة عبر آماد الزمن وآباد الأمم بحكم خلود الدين نفسه ،فالتركيبة البنيوية التأسيسية للمادة المعرفية الإسلامية المبثوثة في ثنايا الآيات والأحاديث ومقاصد الشريعة وأصول الفقه تدعو للثورة المتواصلة علي شهوات النفس،وجمود العقل،وجفاف الروح،وطغيان السلطان،و سطوة التقاليد الاجتماعية الخاطئة والضاغطة علي الفعل الإنساني السديد؛فهذه التركيبة المعرفية تقاتل علي جبهات مفتوحة قتال الأبطال الشجعان ضد كل أشكال الاستبداد والقهر والجبروت عبر المراكز الثورية المتمثلة في دراسات العلماء وخطاب الوعاظ وحلقات القرآن بل عبر نداءات المآذن الله أكبر...الله أكبر.

فمظاهر الإسلام التعبدية التي تكاد تملأ الليل والنهار ماهي إلا أناشيد ثورية تدمغ الظلم الضاغط والمُهين للكرامة الإنسانية حيثما كان؛بغض النظر عن الجنس أوالعرق أواللغة أواللون،منادية علي الإنسانية جمعاء ألا تقع في درك الحيوانية وتنس رسالتها ومهمتها الرئيسية التي خُلقت من أجلها ،وأن تحيا الحياة كما ينبغي بعزة لا ذل فيها،وحرية لاقهر معها،وإباء لا إنكسار يعقبه.

ولكن من المهم أولاً قبل الإبحار في هذا الكتاب أن نحدد:

ماذا نعني بمصطلح الثورة؟

"الثورة : هى العلم الذى يوضع فى الممارسة والتطبيقمن أجل تغيير المجتمع تغييرًا جذريًا وشاملاً،والإنتقال به من مرحلة تطوريةمعينة إلى أخرى أكثر تقدمًا،الأمرالذى يتيح للقوى الاجتماعية المتقدمة فى هذا المجتمع أن تأخذ بيدها مقاليد الأمور،فتصنع الحياة الأكثر ملاءمة وتمكينًا لسعادة الإنسان ورفاهيته،محققة بذلك خطوة

١٦- عصام تليمة –أحاديث الجمعة-حسن البنا –دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة – الطبعة الأولي ٢٠٠٥- ص٧٣

على درب التقدم الإنسانى نحو مثله العليا التى ستظل دائمًا وأبدًا زاخرة بالجديد الذى يُغرى بالتقدم ويستعصى على النفاد والتحقيق"[١٦].

وإنطلاقاً من هذا التعريف المعتمد في هذا الكتاب ندرك أن التاريخ العربي والإسلامي قد شهد العديد من التغيرات السياسية والاجتماعية التي ترقى إلى مستوى الثورات العميقة التي أحدثت تغييرات جذرية في شكل المجتمع والدولة ولإقليم المحيط ،ولكن ورواه التاريخ الإسلامي قد عبروا عن هذه الأحداث الكبيرة والعميقة الأثر في التغيير بمصطلحات أخرى متعددة ومتنوعة بجوارمصطلح "الثورة"؛ولكنها كانت تعني نفس الدلالة الواردة في التعريف السابق،ونتيجة لاستخدام العرب والمسلمون لهذه المصطلحات ظن البعض أن العرب والمسلمون لايعرفون مصطلح الثورة أصلاً وهذا أمريجافي الحقيقية التاريخية الواضحة.!

فالعرب والمسلمون الأوائل قد عرفوا مصطلح "الثورة"واستخدموه،وكان يعنى عندهم ضمن ما يعنى:الهياج والإنقلاب،التغيير،الوثوب،الإنتشار،الغضب..بل لقد دلَّت بعض مشتقات هذا المصطلح على نمط فى الكتاب والتفكيريتسم بالعمق والغوص وراء المعانى وتجاوزها بحثًا عن المكنونات!

وفى(لسان العرب) لابن منظورنطالع حديث الرسول- صلي الله عليه وسلم :"أثيروا القرآن،فإن فيه خبر الأولين والآخرين"- وحديث:"من أراد العلم فليثور القرآن"(رواه أحمد في الزهد:٥٣٢)

تتجلي العلاقة البنيوية بين الإسلام والثورة من خلال التالي:

أولاً: البينة الفكرية للنصوص التأسيسية الإسلامية(القرآن الكريم والسنة النبوية)من حيث مركزية قيم العدل والحرية والكرامة الإنسانية فيها.

ثانياً : معرفة التغيير الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمع الذي نزل فيه،أو في حياة الشعوب التي فتحها من الناحية السياسية والاجتماعية والإقتصادية.

وسنتناول أولاً طبيعة البنية الفكرية للمعرفة الإسلامية وسنبدأ بالنص القرآني بإعتباره النص المهيمن علي ما دونه من نصوص إسلامية أخرى كما قال سبحانه وتعالى"وَأَنزَلْنَا إليكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ"(المائدة٤٨) ،وبإعتباره المرجع الأوثق إجماعاً وثبوتاً بين كل المسلمين بإختلاف مذاهبهم وطوائفهم القديمة والمعاصرة.

١٧- محمد عماره-الإسلام والثورة –دار الشروق – القاهرة ١٩٨٨- الطبعة الثالثة- ص ١٠

مصطلح الثورة في القرآن

مصطلح "ثورة" هكذا لم يرد في النص القرآني ،ولكن آيات القرآن الكريم تزخر بالعديد من المصطلحات التي تتوافق مع دلالة "الثورة" والفعل التغييري الشامل للتغيير والعميق في النفس والمجتمع والشعوب والدول.وفق تعريفنا آنف الذكر للثورة نجد أن القرآن الكريم استخدم مادة مصطلح "الثورة"إلى جوار العديد من المصطلحات الأخرى المتنوعة التي تشير بشكل مباشر إلى مفهوم العملية الثورية في التغيير العميق والجذري،ويمكننا الوقوف علي بعض هذه الشواهد في كتاب الله تعالى من خلال التالي :

١ –استخدم القرآن الكريم مادة مصطلح "الثورة" للدلالةعلى:"الإنقلاب، والإثارة والهياج.
- فبقرة بنى إسرائيل كانت(تُثِيرُالأَرْضَ)أي تقلبها بالحرث الذى يغيرها..

- ومن الأمم السابقة من"كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا"أي قلبوا وجهها كما يقول البيضاوى فى تفسيره.

- والخيل إذا اقتحمت ميدان القتال (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا) أي هيجنّ التراب فصنعن به سحبًا من الغبار.
- والله سبحانه هو(الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُسَحَابًا)أي تهيجه كى ينتشر فيسقى البلاد الميتة أو(يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْف ۚيَشَاءُ)"[١٧]

٢ - لم يقتصر موقف القرآن الكريم من قضية الثورة على استخدام المادة اللغوية لمصطلحها فى الدلالة على معانيها بمجالات بعيدة عن إطارها الذى هو تغيير المجتمع والإنتقال به إلى طور جديد، بل لقد "شرع القرآن الثورة كسبيل إنسانى لتغيير الواقع والتطور بالمجتمعات،فنجد أن القرآن قد أوجب على الأمة واجبات مثل التضامن والتكافل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا اقتضى النهوض بهذه الواجبات استخدام "الفعل" بعد "القول"، والاستعانة "بالقوة" التى اصطلح بعض العلماء على تسميتها: قضية "السيف"ـ كان ذلك مشروعًا- لدى البعض وواجبًا لدى البعض الآخر..وهم قد استندوا فى ذلك إلى قول الله سبحان هوتعالى : (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)..وقوله (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)... "[١٨]

٣ - كثيرة هى آيات القرآن الكريم التى تدعو الإنسان إلى رفض الظلم والعمل على تغييره..فالثورة تعنى الهجرة من حال الاستسلام والسكون إلى حال التمرد والحركة، فهى هجران للركود والموات؛ووثبة يتجاوز

١٨- نفس المصدر السابق.
١٩- محمد عماره-الإسلام والثورة –دار الشروق – القاهرة ١٩٨٨- الطبعة الثالثة ص ١٣

بها الإنسان والمجتمع ذلك الوضع الجائروالواقع الظالم ليستبدله بآخر أكثر إشراقًا ووضاءه؛فليست الهجرة فرارًا وهروبًا ؛فهفى الإسلام فعل إيجابى،بل ووسيلة تأديب!

والذين لا يهجرون المجتمع الظالم لتغييره هم ظالمون لأنفسهم،وهو أشد أنواع الظلم، لأن ضحيته ليست ذات الظالم لنفسه وحدها، وليست فردًا أو أفرادًا، بل الأمة ومصالحها والقيم التى دعى الله إليها وبشّر بها رسوله صلي الله عليه وسلم..وفى ذلك يقول الله سبحانه:

"إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ".(سورة النساء:٩٧)

٤ – استخدم القرآن مصطلح الإنتصار والنصر للدلالة علي التغيير الشامل والذي يشمل في بعض جوانبه الإنتقام من الظالمين والإنتصار للمظلومين وهذا غاية "الثورة"، نجد ذلك في قوله تعالى:"وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ* وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ". (سورة الشعراء:٦) ؛وقوله تعالى" وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ" (سورة الشورى:٣٩)

فالنصر في هذه الأيات يعني إعانة المظلوم،والإنتصاريعنى الإنتصاف من الظلم وأهله والإنتقام منهم؛ والقرآن الكريم يذكر الإنتصاربهذا المعنى كفعل يأتيه الأنصار"ضد البغى"الذى هو الظلم والفساد والاستطالة ومجاوزة الحدود..بذلك يصبح الإنتصار: ثورة..والثوار هم الأنصار.

السنة النبوية والثورة

عند محاولة التعرف علي قسمات وملامح الفعل التغييري الشامل والعميق في كافة المجالات "الثورة" في السنة النبوية الكريمة سنجد محطتين رئيسيتين هما؛مصطلح الثورة ودلالاته في السنة النبوية و طائفة الأحاديث النبوية الرئيسة التي تُشرع للفعل الثوري والثورة.

أولاً: مصطلح الثورة في السنة النبوية

أ – "مصطلح الثورة" ورد في السنة بشكل صريح ومباشر في العديد من الأحاديث الصحيحة... ففى صحاح السنة ومسانيدها الشهيرة نجدهذا المصطلح"الثورة" يُطالعنا فى الكثير من الأحاديث ؛ فالصحابى

"اللجلاج" يروى لنا الحديث الذى يقول فيه:"بينما نحن فى السوق إذ مرت امرأة تحمل صبيًا *فثار* الناس وثرت معهم، فانتهيت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول لها: من أبو هذا؟! فسكتت"

وفى الحديث الذى روته أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ والذى يحكي قصة حديث الإفك الذى شاع ضدها،نقرأ وصف الخلاف الذى نشب بين الأوس والخزرج بينما الرسول يخطب من فوق المنبر،فنجد استخدام هذا المصطلح؛حيث تقول عائشة:".. *فثار* الحيان؛الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا"

أما الصحابى "مرة البهزى" فإنه يروى لنا فى تنبؤ الرسول-صلي الله عليه وسلم- بالثورة على عثمان بن عفَّان فيروي حديثًاً يستخدم فيه مصطلح "الهياج"فى رواية ومصطلح "الثورة" فى رواية أخرى.؛فقد جاء في الرواية الأولي أنه قال:"قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-*تهيج* فتنة كالصياصى..".وجاء فى الرواية الأخرى بلفظ :"كيف بفتنة *تثور* فى أقطار الأرض كأنها صياصى بقر.."

ويؤكد ذلك ما نشير إليه من إشتراك أكثر من مصطلح فى الدلالة على عملية "الثورة" كطريق للتغيير؛كما تؤكد لنا صحاح السنة ومسانيدها شيوع هذا المصطلح فى تراثنا النبوى،"الأمرالذى يشهد لذلك وجود هذا المصطلح فى كتب الصحاح والمسانيد الشهيرة فى أكثر من **أربعين حديثًا**."[١٩]

ب – ورد في السنة الشريفة مصطلحات متعددة تشترك مع مصطلح الثورة من حيث الدلالة والأثر المقصود مثل مصطلح "النهضة" لأن النهوض- كالثورة- يعنى الوثوب والإنقاض. ففى الحديث الذى يرويه الصحابى ابن أبى أوفى فيقول:"كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب أن ينهض إلى عدوه عند زوال الشمس".. كما نقرأ فى حديث أبي بريدة الأسلمى عن فتح خيبر قوله"لما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بحصن أهل خيبر أعطى اللواء عمر بن الخطاب ونهض معه من نهض من المسلمين فلقوا أهل خيبر،فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم:لأعطين اللواء غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فلما كان الغد دعى عليًّا وأعطاه اللواء ونهض الناس معه فلقي أهل خيبر".(رواه الطبراني) ويروي أنس بن مالك أيضاً فيقول:"حَضَرْتُعِنْدَ *مُنَاهَضَةِ* حِصْنٍ تُسْتَرَ عِنْدَ إِضَاءَةِ الْفَجْرِ وَاشْتَدَّ اشْتِعَالُ الْقِتَالِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ فَلَمْ نُصَلِّ إِلَّا بَعْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ".(صحيح البخاري)

إلى غير ذلك من الأحاديث التى تستخدم مصطلح "النهضة" و"المناهضة" بمعنى البروز والوثوب والصراع مع الأعداء لإحداث التغيير والإقتحام للمستقبل وإمتلاك الجديد وإحراز الفتح المبين!.

---

٢٠ - نفس المصدر السابق

كما استخدم مصطلح "الملحمة" في السنة للدلالة على بعض معانى مصطلح "الثورة"،فدلَّ على التلاحم فى الصراع والقتال،وبخاصة إذا كان القتال فى ثورة، كما دلَّ على عمليات الإصلاح الجذرى العميق لأنه" كالثورة" يفضي إلى التأليف بين الأمة ويحقق وحدتها وتلاحمها؛ولأن الرسول-صلى الله عليه وسلم- قد مارس التغيير بالوسيلتين معًا:القتال، والإصلاح العميق،وقد جعلوا من أوصافه.."نبى الملحمة".

ج – لقد قطعت السنة النبوية شوطاً أبعد من توارد مصطلح الثورة فيها والحث عليه؛ بل ضربت لنا نماذج من حياة الأمم والأفراد في رفضهم للظلم والقهر وبينت عواقب الظالمين وثواب المناضلين،وكما هو معلوم أن الأسلوب القصصي من أكثر الأساليب البلاغية تأثيراً في النفس والوجدان وأدوم في الذاكرة ،فالعديد من جمهور المسلمين يعرف قصة الغلام والساحرالتي جاءت في صحيح مسلم والتي تروي قصة شاب ثائر وقف وحده ضد الظلم والطغيان وأثرالقيم العليا علي متاع الدنيا؛وقصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً وقرر التغيير الشامل-التوبة - في الحياة بترك بيئة المعصية والفرار إلى بيئة الطاعة و صحبة الصالحين.

د – تقدمت السنة النبوية خطوة أخرى نحو مفهوم الثورة وضرورة القيام بالتغيير الشامل عند فساد الأمورعبر ضرب المثل،والتذكيز بمآلات عدم الضرب علي يد الفساد والمفسدين، ويتجلى ذلك بوضوح في قوله صلي الله عليه وسلم:

"مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا" (رواه البخاري:٣ / ١٨٢- باب الشراكة)

وهذا الحديث يقدم صورة عن حال المجتمعات وحياة البشر علي الأرض وعن علاقات الناس ببعضهم البعض ومسئولية الحفاظ علي عافية المجتمعات والأمم،حيث "شبه الرسول -صلى الله عليه وسلم - حال الناس في حياتهم ومجتمعاتهم بركاب سفينة تتلاطم بها أمواج البحر،ويوضح الرسول الخطة الواجب اتباعها لكي تنجو السفنية وترسوعلي برالأمان والسلامة من الأخذ على يد الظالم وإعانة المظلوم ،وجبر الخلل قبل أن يستشري في المجتمع ؛وقد ألهم هذا الحديث العديد من المفكرين للكتابة حول فلسفته ومحاولة تطبيقة في واقع الحياة المعاصرة،وذلك لدقة تشبيهه وتصويره لطبيعة المشاكل داخل المجتمعات."[٢٠]

٢٠- محمد توفيق محمد سعد –فقة تغيير المنكر –وزارة الأوقاف القطرية –الطبعة الأولي١٤١٥هجرية – الدوحة-ص ٣٨

ثانياً: مجموعة من الأحاديث المؤسسة للفعل التغييري الشامل "الثورة"

الرسالة المحمدية جاءت أولاً مستهدفةً الإنسان وتحرير عقله وتهذيب وجدانه،وجعلت الإنسان مسؤلاً عن محيطه وبيئته بغض النظر عن مكانه أو مكانته أو وضعه الإجتماعي أو السياسي..فالكل مسؤل عن دعم التغيير الإيجابي ومحاصرة الإنحراف والفساد ومقاومة الظلم والقهرحسب الوسع والطاقة.

وقد تجلى هذا في السنة النبوية كما جاء في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب قال:قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم(كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤلٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤلٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤلٌ عَنْهُمْ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤلَةٌ عَنْهُمْ؛ وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤلٌ عَنْهُ؛ أَلا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

وهذا الحديث بمنطق الفعل الثوري المعاصر هو كسب لمشاعر وعقول الجماهير تجاه الفعل التغييري والثوري،فعندما يكون العقل الجمعي مهيىء لقبول التغيير الشامل ودعمه والمشاركة فيه وتقويته وأحياناً التضحية من أجله تكون مهمة الثوار والمناضلين قد أنجز منها الكثير.

فالمعركة بين الطغاة والمستبدين والمنحرفين ودعاة العدل والحرية والمساواة غالباً ما تدور حول كسب الرأي العام – الجماهير - ،وقد وردت في السنة النبوية الشريفة كوكبة من الأحاديث الملهمة للثوار علي مدار الأزمان منذ بعثة رسول الله(صلى الله عليه وسلم) حتي وقتنا المعاصر وسوف نحلق حول بعض منها في الأسطر التالية لندرك مدى مركزية قضية الثورة والدعوة للتغيير الشامل في سنة الرسول(صلى الله علية وسلم) ناهيك عن الاستشهاد بسيرته صلى الله عليه وسلم والتي كانت تجسيداً رائعاً لهذه القيم الواردة في هذه الأحاديث علي نحو إنساني باهر لايمكن بأي حال من الأحوال مقارنته بسيرة أي ثائر أو مناضل أخر .

طائفة من أحاديث الثورة :

الحديث العمدة في هذا المقام هو قول الرسول- صلى الله عليه وسلم:(مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) رواه مسلم[٢١]

حيث يعتبر العديد من شُرّاح السنة النبوية هذا الحديث لا يحث علي التغيير فقط و"إنما يبين وسائل التغيير ومراحل تغيير المنكر بحيث لايدع عذراً لأحد لعدم القيام بهذه المهمة التي تبدأ من التغيير في الواقع إنتهاءً بإنكار القلب والمقاطعة الوجدانية والشعورية"[٢٢] .

ومن هذه الأحاديث الثورية أيضاً نجد:

-عن جابر بن عبد الله قال صلى الله عليه وسلم: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله"صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١ /٦٤٨

- عن أبي بكر الصديق- رضى الله عنه- قال:"يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواعَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لايَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَااهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَاكُنْتُم تَعْمَلُونَ)

وإني سمعت رسول الله يقول "إن الناس إذا رؤا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده".رواه المنذري – الترغيب والترهيب – الصفحة أوالرقم: ١٣٢/٣)

- عن ذرة بنت أبي لهب-رضى الله عنها- قالت:"قلت يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من خير الناس؛ قال أتقاهم للرب عز وجل وأوصلهم للرحم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر"(رواه أحمد في مسنده)

- عن عبد الله بن عمرو- رضى الله عنهما -عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال:"إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُودعَ منهم" (رواه الحاكم في المستدرك)

وبعد هذه الجولة المعرفية بين آيات القرآن ونصوص السنة الكريمة للكشف عن دلالات مصطلح "الثورة" وما يتعلق بها، وموقف القرآن والسنة من فلسفة التغيير الشامل والعميق في حياة الأمم والمجتمعات والأفراد، يتجلى لنا رسالة الإسلام الثورية والتغييرية الواجب علي المسلمين العمل من أجلها آناء الليل وأطراف النهار.

٢١-صحيح مسلم (بشرح النووي)،كتاب: الإيمان-باب: بيان كون النهي عن المنكرمن الإيمان، (١/ ٤١٣)،رقم (١٧٥).

٢٢ - محمد توفيق محمد سعد –فقة تغيير المنكر –وزارة الأوقاف القطرية –الطبعة الأولي١٤١٥هجرية – الدوحة-ص ٣٨

وبحكم أن القرآن كتاب خالد جاء للناس كافة نذيراً وبشيراً فقد تناول جوانب الحياة كلها بالتصويب والتوجيه من خلال عرض القصص والنماذج ،فتجده تارة يتناول العدالة الإقتصادية والحرية السياسية والعدالة الاجتماعية ،وكل هذه الجوانب السابقة قدم فيها القرآن وقدمت بخصوصها السنة إضاءات معرفية جديدة تُعدّ بمصطلح العصر رؤى ثورية تجديدية تنتظم كل هذه المجالات،وسوف نقف علي أربع معالم ثورية تناولها القرآن لنقف علي نوع المعالجة القرآنية لها حتي ندرك مدى التغيير العميق-الثوري-الذي سيحصل في دنيا الناس عندما يستجبون لها ويعيشون علي هداها.

ثورات متعددة وهدف واحد

الآيات في القرآن الكريم التي تدعوإلى إحداث تغيير شامل في جوانب شتي في الحياة قد تبدو متشعبة الجوانب لكنها في ذات الوقت متحدة الهدف والغاية؛ فهناك آيات تدعو لتغيير شامل وعميق في علاقة الإنسان بالله وضرورة إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة (ثورة روحية)...وسنجد آيات تدعو إلى تغيير عميق في الجانب الإقتصادي(ثورة اقتصادية)..وأيضاً سنجد آيات تحث البشرية علي إحداث تغيير شامل ودائم في قضية المساواة والعدل(ثورة اجتماعية)...

وهكذا جاءت آيات القرآن العظيم لهدم أركان الطغيان البشري سواءً في الحقل السياسي أو الفضاء الإجتماعي أو الإقتصادي القائم علي إستغلال البشر وإحتكار المال والثروة والسلطة،و سوف نُبحر معاً في اتجاه هذه النصوص الكريمة لنرى مدى عظمة القرآن الكريم في التعاطي مع هذه القضايا التي شغلت وستشغل الإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،وسوف نركز هنا علي أربعة محاور رئيسية تمثل أمهات الخطاب القرآني في الدعوة إلى تحرر الإنسان من أوهام الأفكار وقيود الأرض ونزوات النفس وهذه القضاياهي : العلاقة بالله...الكرامة الإنسانية...العدالة...الحرية.

ولكن لماذا هذه المحاور الأربعة دون غيرها؟

اخترت هذه المحاورالأربعة لكونها تتناول الإجابات الشافيةلأسئلة الوجود التي شغلت بال البشر على إختلاف أجناسهم وبلدانهم سواء سوداً أو بيضاً ، عرباً أو عجماً ، فلاسفة، أو عُباد، رجال سياسية أو من عامه الناس.فأسئلة مثل : ماهو أصل الوجود؟؟،وما أصل الإنسان؟؛ما طبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع ؟؟ وماهوالموقف من السلطة والثروة وكيف توزع؟ وهل الإنسان مخير أم مُسير؟؟ ماهي الحرية ؟؟ نلاحظ أن كل هذه التساؤلات تدور حول أربعة محاور رئيسية وهي : **(الإنسان ، الدين ، السلطة ، الثروة)**

وعلي المستوي الإجرائي كانت هذه القضايا والتعاطي معها وإختلاف وجهات النظر حولها هي السبب الرئيسي في بروز الأيديولوجيات الإنسانية مثل الشيوعية ،والرأسمالية، والفاشية، والنازية وغيرها من الأفكار المركزية،وتصارع هذه الأيديولوجيات مع بعضها البعض يرجع في الأساس إلى إختلاف مقاربتها للأسئلة الوجودية السابقة.

فكان لابد من عمل هذه المقاربة المعرفية لكي ندرك ماهية الرؤيةالإسلامية لهذه القضايا الكبرى التي تشغل بال البشرية، وكيف تعاطي الإسلاممعها علي المستوي المعرفي والإجرائي؟

الإسلام عبر نصوص القرآن المباركة،والسنة المُطهرة، وما أبدعه من ثورة حقيقية علي الأرض بجهود الرعيل الأول من الصحابة بقيادة الرسول- صلى الله عليه وسلم- قدم معالجات فكرية عميقة لهذه القضايا وكانت هذه المعالجات فاتحة خيرللإنسانية من حيث إعادة تعريف الوجود الإنساني وقضاياه المركزية،وكان من الواجب أن تترعرع هذه المعالجات وتنمو في واقع المسلمين حتي تتحول إلى نظريات سياسية وإقتصادية واجتماعية توفر إجابات حقيقية لأسئلة العصر المتجددة،ولكن يبدو أن جهود المسلمين تراجعت في هذا الجانب وقد عبر عن هذه المعضلة الفيلسوف محمد إقبال بقوله "القيم الإسلامية الكبرى مثل الشورى والعدالة والمساواة، قيم ولدت أجنّة لكنها لم تنمو كما ينبغي".[٢٣]

فهدف الإسلام الأسمى من طرح رؤيته الكونية في قضايا الوجود الإنساني هو تحرير الإنسان من الذل والقهر والاستغلال عبر محاربة منابع الطغيان في النفس والوجود.

ثم بعد ذلك جاء التفصيل في سبل التحرر من الاستعباد السياسي والإقتصادي والإجتماعي؛وسوف يتضح ذلك لنا من خلال الوقوف على دور النص القرآني الكريم كأداة لتحرير البشرية جمعاء من همومها وأمراضها عبر إضاءات نورانية ملهمة وحافزة علي استكمال طريق الحرية والسعادة التي تبدأ من الداخل نحو الخارج أي من معالجة الإنسان أولاً ثم معالجة قضايا الكون والوجود.

سنبدأ في الصفحات التالية التعرف علي نظرة الإسلام للإنسان وعلاقته بالله ودوره المطلوب منه في الحياة وماهي سبل تحرير النفس الإنسانية من الوهم والأفكار القاتلة،وكيف تعامل القرآن مع الكرامة الإنسانية ، والحرية والعدل وماهي وسائل تحرير الإنسان من القيود،فالإسلام لم يكتف فقط بتعريف الإنسان بذاته وإنما قدم له وسائل شتى ليكون كما أراد الله..سيداً للكون يسعي نحو المعالى ويطلب هداية السماء،وأول قضية مركزية في هذا الإطار كانت قضية التوحيد لما سينبثق عنها من رؤى للذات والكون والحياة ،فهي الأرضية

٢٣- محمد مختار الشنقيطي – محاضرة عن إقبال – الدوحة ٢٠١١

التأسيسة التي سوف تبني عليها دعائم تحرير الإنسان وتحريره من العبودية والقهر،ولذلك قدمها الإسلام علي غيرها من القضايا الأخرى.

أولاً: توحيد الله جلّ جلاله

"لا إله إلا الله...شعار التوحيد في الإسلام الذي جاء لتحرير الإنسانية كلها من كل أشكال الإستعباد لغير الله ،فلا ملوك،ولاقياصرة،ولا أكاسرة،ولا فراعنة،ولا جبابرة،كما الله تعالى"فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ" فهو سبحانه وحده الرّب والملك والإله".[٢٤]

فشعار التوحيد "لا إله إلا الله" تمكُن فيه طاقة إختزالية محركة،فتحت أمام البشرية مُمكنات تاريخية وحضارية هائلة كان لها بالغ الأثر في تغيير حال مجتمعات وشعوب ودول من الاستبداد إلى العدل،ومن الفقر إلى الغنى،ومن التنازع إلى الوفاق.

فشعار التحرير- التوحيد- يضرب مكامن الخوف البشري بقوة ويجعلها تتهاوى فلا تهاب إلا الله ولا تخشي سواه سبحانه وتعالى،ثم جاءت آيات القرآن الكريم تُتلى آناء الليل وآطراف النهار لتُهدهد القلب البشري وتعالج مخاوفه،فلا يتوسل بغير الله،بل يسلم وجهه له بشكل كامل.

ولتأكيد ذلك فقد جاوزت الأيات الكريمة التي تصور معني العبودية الحقيقية لله تعالى، والمقارنة بينها وبين عبادة ما سواه قرابة **مائتي آية**،وكأن الله سبحانه وتعالى يبين بذلك للإنسان أن توحيد الله وعبوديته هي تحرير وتشريف وليست إذلالاً وإخضاعاً، لكنها تحرير عبر تخلُق الإنسان بمقاصد "لا إله إلا الله" الكبرى ومنها:

١- الخالقية:فيقول الله سبحانه وتعالى"أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين" الأعراف:٥٤ وقوله"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"غافر:٦٢

٢- الربوبية: كقوله تعالى"الْحَمْدُللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" سورة الفاتحة؛وقوله "قُل ْأَعُوذُبِرَبِّ الناس"سورة الناس،وقوله"قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا)الأنعام:١٦٤

٣- الألوهية: كقوله "اللَّهُ لاإِلَهَ إِلَّاهُوَ" البقرة:٢٥٥

٤- صفات الكمال وأسماء الجلال: كقوله"وَلله الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ"الأعراف: ١٠٨

٢٤- الحاكم المطيري- تحرير الإنسان وتجريد الطغيان –المؤسسة العربية للدراسات والنشر –الأردن ٢٠٠٩ – الطبعة الأولي ص٤٢

٥- الملك: كقوله"ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ"سورة فاطر:١٣

٦- الحكم: كقوله"إن الحكم إلا لله" يوسف: ٤٠

٧ – الطاعة: كقوله"قلْ أَطِيعُواااللَّهَ وَأَطِيعُواالرَّسُولَ" النساء: ٦٤

٨- العبادة: كقوله"وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إليه أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) الأنبياء٢٥ ، وكقوله"يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواإِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ"العنكبوت:٥٦

٩- الرهبة والخشية والخوف:في قوله"وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ" البقرة:٤٠

وقوله سبحانه" الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" الاحزاب:٤٠

١٠ – الأمر والولاية علي خلقه: في قوله"أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين"الأعراف:٦٢

وبعد إستقراء هذه النصوص السابقة يتجلى لنا مدى مركزية قضية التوحيد من ناحية كونها تكليف إلهي واجب الإتباع جاء علي لسان كل الأنبياء والمرسلين،وهذا يؤكد علي أن الإسلام لم ينزل كثورة تغيير اجتماعي فقط وإنما جاء كدعوة تذكير بالعقيدة التي نزلت علي آدم وعلي جميع الأنبياء،ثم تقادم عليها العهد حرفها المحرفون. فالإسلام عودة إلى العقيدة التي نزلت علي آدم ،وتذكير بالتوحيد وتعريف بالله وصفاته وأسمائه وأحكامه وشرائعه،وليس الإسلام فقط ثورة تغيير اجتماعي،وإلا لكان محمد-صلى الله عليه وسلم- مجرد جيفارا أو كاسترو أو لينين؛ فالعدالة الاجتماعية في الإسلام هي نتائج بالتبعة للتوحيد وتقوى الله وطاعة وصاياه. وبهذا المعني لايكون الإسلام ثورة تغيير فقط بل كلمة تذكير وتثبيت للقديم الأزلي وعودة إلى كلمة "لا إله إلا الله" الأولى في صفائها ونقاءها"وهذا يجعل ثورية الدين الإسلامي في مرتبة أعلي وأكبر من أي ثورة أخرى جزئية تقوم لمعالجة خلل محدد في نظام سياسي قائم"[٢٥].

ومن خلال ذلك يتضح لنا أن كلمة التوحيد "لا إله إلا الله "- في الجانب الدينوي- ثورة تحريرية ،متجددة العطاء،عميقة الأغوار"فلقد ألفت بين الناس عندما رفعت عنهم إصر الطواغيت،وأحيت طاقاتهم الخلاقة والمبدعة عندما حررتهم من الضغوط والقيود والأغلال؛ثم قذفت بهم شهاباً منيراً طريق العقل وحارقاً قوى الطغيان التي تحول بين هذا العقل وبين حريته في الإختيار"[٢٦]

٢٥- مصطفي محمود –أكذوبة اليسار الإسلامي –دار المعارف – القاهرة- الطبعة السادسة ١٩٩٥ –ص١٦
٢٦- محمد عمارة –الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري – دار المستقبل – الطبعة الأولي – ١٩٨٥- ص ٦

ثانياً: الكرامة الانسانية والإستخلاف في الأرض

فبعد دعوة التوحيد "لا إله إلا الله وحده لاشريك له"جاء دور إطلاق مُمكنات البشر لعمارة الأرض؛وتنزل معاني التوحيد لله في دنيا الناس عملاً وقولاً وفعلاً ،ولن يحصل ذلك للبشر إلا بالوقوف علي سؤال من نحن؟؛ ولماذا نحن هنا؟؛ وما مصيرنا بعد ذلك ؟

فالإجابة علي هذه الإسئلة الوجودية تمثل أول خطوات الإنطلاق نحو فاعلية الإنسان فكما هو معروف أن الوجود لايعني الفاعلية ،فكم من هيئات ومؤسسات القائمة ولكن فاعليتها وإنتاجها يكاد يكون معدوماً، فالوجود لايساوي الفاعلية ،والقرآن يحث علي الفاعلية والإيجابية واستعمار الأرض،فكان لابد من تعريف الإنسان بقدره ومسيرته ومصيره وميدان اشتغاله ؛ويتضح ذلك من خلال التالي :

١- تأكيد القرآن علي أن جنس الإنسان خليفة لله في الأرض كما قال الله تعالى"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" البقرة:٣٠

وفي هذا اختصاص للنوع الإنساني باستعمار الأرض وإصلاحها كما قال تعالى"هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ"هود:٦١

٢ –أثبت القرآن أن الإنسانية كلها من أصل واحد ومن أب واحد وأم واحدة وأنه لافرق بين ذكر وأنثى إنطلاقاً من قوله تعالى"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" الأعراف:١٨٩

٣- أكد القرآن علي أن المقصود من جعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا علي البر والتقوى ولا يتعاونوا علي الإثم والعدوان "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" الحجرات:١٣

٤- كرّم القرآن الإنسان وجعل الكون خادماً له ومُسخر له:"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ" الإسراء:٧٠

٥- أكد القرآن أنه لافرق بين أمة وأمة،وجنس وجنس،ولون ولون ،فلا فرق بين أبيض وأسود، ولا عربي وعجمي،ولا ذكر وأنثى، إلا بالتقوى،وأن الناس سواسية كأسنان المشط.

"لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَـابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً؛وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً"النساء ١٢٣:١٢٤

٦- قررالقرآن حرمة النفس البشرية وحرمة الإعتداء عليها وأن من قتل نفساً واحدة كان كمن قتل الناس جميعاً ومن أحياها كان كمن أحيى الناس جميعاً فقال تعالى"مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِى إِسْرٰءيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلأرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَـهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مّنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِى ٱلأرْضِ لَمُسْرِفُونَ" المائدة:٣٢

٧- وعد الله في كتابه الكريم عبادة المؤمنين المصلحين بالاستخلاف في الأرض"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" النور :٥٥

الإنسان سيد الكون

ومن أبرز مظاهر تكريم القرآن للإنسان تسخير الكون وجعل الإنسان سيد هذا الكون والكل في خدمته ورهن إشارته كما في قول الله عزوجل:

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون) النحل:١٢

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل:١٦

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) لقمان:٣١

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً) طه:٥٣

فهذه النصوص في تقديس الكرامة الإنسانية قضت علي جهل الإنسان بنفسه حيث عرفت الإنسان ما هوالإنسان،وربطت هذه النصوص برباط وثيق بين الإنسان والكون وجعلت دوام النظر والدأبعلي التفكير طريق العلم والعرفان، فتعريف الإنسان بكرامته فتح باباً واسعاً للناس،كل الناس مسلمهم وكافرهم بممكناتهم الإنسانية،وقدم الإسلام علاجاً شافياً للعديد من مظاهر الضعف البشري وحدد مكامن الضعف حتي تصوب

البشرية سهام المعالجة نحوها، فحدد أن ضعف النفوس بالشح والإثم وأن ضعف الرؤوس بالغباء والجهل وأن ضعف الأبدان بالشهوات والسقم.

فمن خلال وصف قائمة هذه الأدواء الإنسانية وتوضيح طريقةعلاجها ستتقلص مساحة الظلم والقهر وستكبر مساحة العدل والمساواة والإنصاف وهذه هى الغايات الكبرى للثورات.

ثالثاً : حرية الإنسان

هناك فريق يدعي أن الإسلام لايُقدس الحرية ولايعتني بها ولايعتبرها قضية مركزية شعارهم "لاحرية في الإسلام"ويسوقون في ذلك مجموعة من الأدلة الواهية منها:

الدليل الأول: هو أن كلمة حرية لم تُذكر في القرآن الكريم مطلقاً وربما كذلك في السنة النبوية المطهرة؛ويعتبرون أن غياب اللفظ يعني غياب المعنى والقيمة.!!

ولكن من يستعرض كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة الرسول(صلى الله عليه وسلم) سوف يجد قيمة الحرية واضحة المعالم والقسمات،وسوف يكتشف أنها من غايات الدين الكبرى ومقاصد الشريعة العليا،وسيجد أنها من أهم مباحث الفقه الإسلامي المعتبرة،ومن أسئلة الفلسفة الإسلامية الكبرى.

الدليل الثاني: يقولون أن الإسلام مبني علي أمرين هما التوحيد ووجوب الخضوع لله سبحانه وتعالى وإفراده بالخوف والرجاء والعبادة من هنا يستدلون بأنه لاحرية في الإسلام؛لأن الحرية نقيض العبودية!؛ويسوقون في ذلك آيات قرآنية مثل:" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ؛ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ" وبالتاليفالحرية نقيض العبودية..!

ولكن إذا دققنا في الأمر نجد أن القرآن أوضح أن الإسلام قائم علي التكليف"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"(البقرة:٣٠)؛وهذا التكليف مشروط بعاملين هما العقل والحرية،فالحرية مناط التكليف كما يقول علماء الأصول،ويُستمد ذلك من قول الله عز وجل"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ"الإسراء:٧٠.

وهذا تقريربالكرامة الإنسانية وهذا التكريم لها يجعل الفعل الإنساني قائماًعلى الإختيار الذي بينه الله سبحانه وتعالى بقوله"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"(البقرة:٢٥٦) وذكره أيضاً في قوله "فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ"(الكهف:٢٩) وقوله"فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوامُؤْمِنِينَ"يونس ٩٩ .

"فالفعل الاستخلافي لايكون تعبدياً إلا بقدرما يكون حراً مريداً وواعياً ومسئولاً؛وهنا ينتفي التعارض الظاهري بين الدين والحرية، بل تصبح الحرية شرطاً للتدين في حد ذاته"[٢٧] .

الدليل الثالث: عند هذا الفريق هو أن الإسلام لا يُقدر الحرية ولا يراعي إختيارات الإنسان؛ لوجود ما يعرف عند الفقهاء بحد الردة ،فمن دخل في الإسلام وارتد وخرج منه وجب أن يُستتاب،فإن رفض التوبة والعودة للدين يقتل مصدقاً لحديث الرسول-صلى الله عليه وسلم"من بدل دينه قتلوه"..!

لكن يُرد علي ذلك بأن بالقول أن هذه الشبهة مشهورة وذاع صيتها لأمرين:

الأمر الأول : ترديد العديد من الفقهاء والوعاظ والدعاة لهذا الحكم الفقهي- حد الردة- معتبرينه أداة هامة في التصدي لغزو الأفكارالجديدة الوافدة علي العالم الإسلامي مثل الهجمات التنصرية وغيرها من الدعوات الإباحية واللادينية؛ويهدفون من ذلك إغلاق المنافذ الفكرية أمام هذه الدعواتوتحذيرالجمهورالمسلم من السماع لهذه الدعوات.

ثانياً: دخول العالم في مرحلة العولمة وكسر المسافات والحواجز بين العقائد،عبر وسائل التواصل السريعة مثل الإنترنت وغيرها؛وحرص كل طرف ديني أو سياسي أو ثقافي علي الترويج لنفسه ومعتقداته،مستخدماً في ذلك كل السبل المتاحة سواء من خلال الغوص في تراث الأخر والتقاط نقاط الضعف وإبرازها وتضخمها واللعب عليها،وبالتالي كانت قضية حد الردة في الإسلام من أكثر القضايا سؤالاً في وجه دعاة الإسلام والمسلمين في هذا العصر.

ولتفكيك هذه القضية لابد من الوقوف علي هذه المحطات :

١ – "الزعم بوجود إجماع بين المدارس الفقهية الإسلامية بقتل المرتد ليس صحيح، فالخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وسفيان الثوري،وابراهيم النخعي يرون أن المرتد يُستتاب ولا يقتل"[٢٨]

٢ – الرسول-صلى الله عليه وسلم- لم يرد عنه في المصنفات المشهورة أنه قتل مرتداً ولا زنديقاً،بل قد جاء عن الشافعي"أن هناك بعض الناس آمن ثم ارتد،ثم أظهر الإيمان ،فلم يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم".

٢٧- راشد الغنوشي – الديمقراطية وحقوق الإنسان في الإسلام –مركز الجزيرة للدراسات الدوحة ٢٠١٢ ص٤٥

٢٨- طه جابر العلواني – لا إكراه في الدين – مكتبة الشروق الدولية –القاهرة –الطبعة الأولي ٢٠٠٣-ص ١٩

٣- "فرّق الفقهاءبينإنسان يترك الإسلام ويختار ديناً أخر دون تحريض المجتمع علي ترك الإسلام وبين من جعل همه الأول والأخيردعوة المجتمع المسلم لمغادرة مقعد الإسلام"[٢٩]

٤ – القول بأن موقف الإسلام العام من المرتد- القتل-هو رأي به تحيز كبير وعدم موضوعية.

٥ – "هناك بحوث أكاديمية شرعية رصينة وحديثة ذهبت لعدم وجود هذا الحد في الفقه الإسلامي أصلاً،وأن هذا الأمر-حدالردة- ينتمي إلى تراث التاريخ السياسي الإسلامي،وليس من أحكام الشريعة،وبما أن المقام لايتسع لهذا لذلك أكتفي بهذه الإشارات"*

وبعد تفكيك هذه المغالطات السابقة حول محدودية فضاء الحرية في الإسلام،يتضح لنا كم هي مركزية قيمة الحرية في الإسلام،وأنها قيمة حاكمة ومهيمنة علي ما سواها من قيم،ومن أجلها أرسل الله الرسل والكتب،وأن المقاربة الإسلامية للحرية متقدمة علي ما سواها من منظومات فكرية قديمة ومعاصرة ،وستتضح الأمور أكثر في علاقة الإسلام بالحرية من خلال الإبحار في كتاب الله وسنة رسوله من خلال الوقوف علي النصوص الملهمة في هذا الإطار؛فالمتتبع لآيات القرآن التي تتناول قضية الحرية الإنسانية سيجد أنها تُمجد قيمة الحرية بقوة سواءً كانت آيات مكية أم مدنية، مما لا يدع مجالاً للشك لدي المسلم وغير المسلم بأن الحرية هي أحد أهم القضايا المركزية الكبرى للدين الإسلامي التي بشّر بها وناضل من أجلها ومازال منتصراً لها عبر آماد الزمن وآماد الأمم.

اعتبر النص القرآني إجبار الناس وقهرهم علي إعتناق عقيدة معينة "جرم كبير" يفوق القتل بنص قوله تعالي"الفتنة أشد من القتل"(البقرة ١٩١)،بل لقد جاء الوحي والهدي النبوي لتحقيق حرية الإنسان وتحريره من قيود الأرض وأوهام العقول وخرافة سيطرة قوي الطبيعة وسيطرة من الرهبان والأحبار الذين يستحلون دماء وعرق الخلق باسم الدين ويتضح ذلك من قوله تعالي"وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"سورة الأعراف:١٥٥- ويتضح في مكان أخر من قوله تعالي "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ؛رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوصُحُفاً مُّطَهَّرَةً"(البينة ١،٢)؛ويعلق علي هذا العلامة المغربي علال الفاسي بقوله "ما كان الإنسان ليصل إلى حريته لولا نزول الوحي،وإن الإنسان لم يخلق حراً

٢٩- يوسف القرضاوي – ملامح المجتمع المسلم –مكتبة وهبة- القاهرة –الطبعة الأولي -١٩٩٣ ص٣٥

* ويمكن الرجوع في هذا الباب إلى دراسة د. طه جابر العلواني السابقة .

**- راشد الغنوشي – الديمقراطية وحقوق الإنسان في الإسلام –مركز الجزيرة للدراسات الدوحة ٢٠١٢ ص

وإنما ليكون حراً،إن الحرية كدح ونضال في طريق عبودية الله وليست إنطلاقاً حيوانياً ،فإن الإنسان الجدير بصفة الحر هو المؤمن بالله ،وإن التكليف هو أساس هذه الحرية وعلامتها"**.

ويتجلى إطلاق الإسلام لحرية الإنسان العقدية والفكرية في قوله تعالي:"وَمَا أَرْسَلْنَاك إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" الإسراء:١٠٦، ويعلق علي ذلك الشيخ محمد الغزالى-رحمه الله- بقوله "آمنوا إذا شئتم أو ابقواعلي إنكاركم له وكفركم به إذا شئتم،فلن يجبركم أحد علي إعتناق ما تكرهون،إن الوسيلة الوحيدة للإيمان المنشود هي المعرفةالحرة والإقتناع المجرد والخشوع،بعد ذلك يأتي الإيمان عن عاطفة جياشة بالصدق والإخلاص"***

ومن اللُمع المضئية في الفقه الإسلامي في هذا الإطار قول الدكتور محمد يوسف موسي"أن الإسلام اعتني عناية خاصة بالحريةوقدرها حق قدرها فقد جاء أن الفقهاء قالوا أنه إذا وجد صبي غير معروف نسبه هل مع مسلم أو كافر،فقال الكافرهو ابني؛وقال المسلم هوعبدي،يُحكم بحريته وبنوته للكافر،وذلك لأنه بهذا الحكم ينال حرية في الحال"&

(سورة البقرة:٢٦٥)"**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّن الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ**"

ومن خلال معرفة سبب نزول هذه الأية يتجلى لنا حقيقة إحتفاء الإسلام بالحرية والأحرار حتي لو كان في ذلك تأخر إلتحاق بعض الأفراد والقبائل والأسربه ؛وقد ذكرت بعض كتب أسباب النزول وكتب التفسير بعضاً من الأخبار الواردة في سبب نزول هذه الآية،ومن ذلك:

* ما رواه ابن عباس-رضي الله عنهما،أنه قال"كانت المرأة تكون مقلاتا ً- أي:لا يعيش لها ولد- فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده،فلما أجليت بنو النضير،كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا:لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي".(سنن أبو داود- باب الجهاد)
* وروى ابن عباس أيضاً، أنها نزلت في رجل من الأنصار،كان له ابنان نصرانيان،وكان هو رجلاً مسلماً،فقال للنبي صلى الله عليه وسلم:ألا أستكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية،فأنزل الله فيه ذلك.
* وروى الواحدي عن مجاهد، قال:نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار،كان له غلام أسود،يقال لهصبيح، وكان يكرهه على الإسلام. **

***- محمد الغزالى – هذا ديننا –إدارة إحياء التراث – الدوحة - ص ٥٩

& نفس المرجع السابق

** القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – دار الكتب العلمية – الطبعة الخامسة – جـ٢: ٣- سنة ١٩٩٦- ص١٨٢

وقد ذكر القرآن الكريم أن من آيات خلق الإنسان ومن منن الله سبحانه وتعالى عليه أن علّمه الإفصاح عما يخالج نفسه ويشغل عقله فقال الله تعالى"خَلَقَ الْإِنسَانَ؛عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"(الرحمن ٣،٤) ويعلق الدكتور أحمد الريسوني علي هذه الأية بقوله"أن الله سبحانه وتعالى ذكر بعد خلق الإنسان مباشرة تعليم الله للإنسان البيان قبل أمره بالعبادة والخضوع لله وهذا تقدير لمركزية حرية التعبير وإبداء الرأي وأنهما متلازمان مع بني البشر لحظة المنّ الإلهي علي البشر بإيجادهم من العدم"*

وبعد الإبحار في خطاب النص القرآني حول حقيقة التوحيد وتقدير الكرامة الإنسانية ودعوته لتحرير الإنسانية من كافة مظاهر العبودية،يحسن بنا أن نقف في السطور التالية عند دعوة الخطاب القرآني لإقامة القسط والعدل في دنيا الناس.

رابعاً: دعوة الخلق إلى العدل والحق:

الدعوة إلى العدل والإنصاف والقسط مبثوثة في صفحات كتاب الله الكريم سواء في المرحلة المكية أو المرحلة المدنية ،فأحد الغايات الكبرى للإسلام إقامة العدل والإنصاف في دنيا الناس، فالإسلام يريدالفرد العادل مع نفسه ومع مجتمعه؛ويريد أن تكون دولته عادله وأمته منصفة،فقد شنّ القرآن الكريم حملة شعواء علي الظلم بجميع أنواعه الاجتماعية والإقتصادية والسياسية،ولم يكتف بذلك بل أشار إلى طرق الخلاص من هذا الظلم وبشّر المقهورين بإمكانية الفعل،وفتح لهم طاقة من الأمل من أجل غد أرحب تسود فيه قيم العدل والمساواة والإخاء؛ويُقتص فيها من الجبابرة والطغاة الذين يأكلون أموال العباد وينهبون ثروات البلاد..."وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ؛وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ" سورة القصص:٥

وكما يقول المفكر المسلم علي عزت بيجوفيتش"أن المتأمل لتاريخ الثورات الإنسانية يدرك أنها كانت صرخة في سبيل البحث عن العدالة،والعدالة مبدأ ديني وليست مبدأ إنتاجي ولا صناعي ولا اجتماعي؛فمطالب الدين هي مطالب باسم الله ولمصلحة الإنسان،ولا يمكن أن تكون لمصلحة طبقة أو لون أو جنس أو قومية معينة،ولا يمكن أن تكون لمصلحة الطبقة الحاكمة أو طبقة الأغنياء."**

*مجلة الأزهر – عدد أكتوبر- القاهرة -٢٠١١

** علي عزت بيغوفيتش – عوائق النهضة الإسلامية - جمعية قطر الخيرية. ١٩٩٧

وفي هذا السياق حفل القرآن بمئات الآيات التي تستحث البشرية علي مغادرة كهوف الظلم والتمتع بشمس المساواة والعدالة والقسط ،وقد عرض المفكر الإسلامي الكبير سيد قطب أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام وقال "أنها تستندإلى ثلاثة أصول كتالى:

١ – تحرير الوجدان المطلق.

٢- المساواة الإنسانية الكاملة.

٣ – التكافل الاجتماعي الوثيق."[٣٠]

وقد فصلنا في محور تحرير الوجدان المطلق بتوحيد الله سبحانه وتعالى وتناولنا محور الكرامة الإنسانية الشاملة لكل بني البشر واستعرضنا طرفاً من صور التكافل التي حث عليها الإسلام،وكأن كل هذه المحور السابقة تهدف إلى تحقيق عدالة اجتماعية راسخة الأركان،وقوية البنيان،تستمد مشروعيتها من خالق الكون لتنتشر الرحمة وسط الخلق فقيرهم وغنيهم،قويهم وضعيفهم.

وسوف نستعرض معالجة النص القرآني لقضايا الظلم وفق التالي :

مقاومة الظلم الإقتصادي

١-أوضح القرآن أن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب من أجل إقامة العدل والإنصاف بين البشر "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ"(الحديد ٢٥،٢٦)

أوضحت الآيات أن إقامة القسط،أو القيام بالقسط،هو مقصد كبير وعريض من مقاصد بعث الرسل وإنزال الكتب ووضع الشرائع ،وقد جعله القرآن الكريم مقصداًعاماً لبعث الرسل كافة،واعتني به بشكل متميزلافت للانتباه، ولقد قررت الأيات أن إرسال الرسل جميعاً..والبينات التي أوتوها..والكتب التي بُعثوا بها..والميزان الذي فيها ومعها.. كل هذا لأجل مقصد واحد وهو أن يقوم الناس بالقسط.

ومعنى هذا أن كل ما جاء به الرسل مهما تعددت أسماؤه ومسمياته إنما هو القسط،لأن هذه الأيات جمعت كل مقاصدهم وأسباب بعثتهم في شيء واحد هو القيام بالقسط

٣٠- سيد قطب – العدالة الاجتماعية في الإسلام- دار الشروق-١٩٩٣- الطبعة ١٣ – ص٣٢

ولعل من المفيد هنا أن نسجل أن لفظ "القسط" في القرآن مرادف للفظ "العدل" فهما شيء واحد أو اسمان لمسمي واحد،إلا أن أحد اللفظين عربي وهو "العدل"والأخر معرب وهو "القسط" .

"فالقسط مطلوب من كل الناس،وفي جميع المجالات،وفي كل الحالات،يقومون به ويعملون لأجله ،ويحيون به ،ويتصرفون بمقتضاه،وينعمون بظله،والقيام بالقسط الذي هو مقصود الرسل والشرائع والموازين هو قبل ذلك وفوقه صفة الله تعالى،فهو سبحانه قائم بالقسط ،ويأمر عباده أن يقوموا بالقسط؛ فمقصود الشريعة ومطلوبها هو إقامة حياة القسط ومجتمع العدل."[٣١]
(شهِدَا للَّهُ أَنَّه لاالله إلاهُوَوَ الْمَلَائِكَة؛ وَأُوْلُواالْعِلْمِ قَآئِمَا بِالْقِسْطِ لاإله إلاهُوَالْعَزِيزُالْحَكِيمُ" آل عمران:١٨-١٩

٢-جعل الله سبحانه وتعالى إنزال الكتاب والميزان متكافئين من أجل إقامة العدل..

"وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ "(الحديد:٢٦)

٣- دعى القرآن إلى إقامة العدل وإنصاف المظلوم ونصرة الضعيف والرحمة بالخلق،بل لقد قدم القرآن المكي الدعوة إلى القسط علي توحيد الله سبحانه وتعالى..

"قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُم ْعِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" (الأعراف:٢٥)

٤- نعى القرآن الكريم المشركين ماهم فيه من ظلم وتظالم حيث كان الظلم فاشياً فيهم بكل صوره وأشكاله ومن ذلك الظلم الإقتصادي في البيع والشراء

"وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ؛الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ؛وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ؛ أَلا يَظُنُّ أُوْلَـئِكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ؛ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ؛يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ" سورة المطففين

٦- قصّ القرآن علينا قصة نبي كانت أبرز مهامه إقامة العدل بعد الدعوة للتوحيد وعبادة الله

- "وَإِلَي مدين أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ"العنكبوت:٣٦

٣١- د.أحمد الريسوني – الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية –دار السلام –الطبعة الأولي ٢٠١٠ ص ١٠٠

- "إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ،إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين،أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ،وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ" الشعراء١٧٧-١٨٤

- وقال تعالى في شأن اليهودأنه عاقبهم بسبب ظلمهم...

"فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً؛وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أليماً" النساء:١٦١

٢ـ مقاومة الظلم الاجتماعي بكل صوره وأنواعه وأشكاله:

أ-النهي الصريح عن ظلم اليتيم وظلم المرأة وظلم الفقير وظلم الضعيف..ومن ذلك قوله تعالي:

* "كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ" سورة الفجر:١٧

*"أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليتيمَ ،وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ،فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ،الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ،الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ،وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ" سورة الماعون

* "فَأَمَّا اليتِيمَ فَلَا تَقْهَر،وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ" سورة الضحى:٩-١٠

ب- الحث بالصدقة علي الفقراء والمساكين وجعل ذلك سبيلاًلدخول الجنة:

* "فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى؛وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى؛فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى" سورة الليل:٥-٧

* "فلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ؛وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ؛فَكُّ رَقَبَةٍ،أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ،يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ،أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَة،ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" سورة البلد:١١-١٧

* "مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ،وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ؛وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ" سورة المدثر:٤٢-٤٥

ج- جعل تعالى القتال في سبيل المستضعفين كقتال في سبيل الله:

*"وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا" النساء:٧٥

د-مقاومة الظلم الطبقي

- "وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ" سورة الكهف:٢٨

يقول خباب بن الأرت عن سبب نزول هذه الأية "أنه قد جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينه بن حصن الفزاري،فوجدوا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبي-صلى الله عليه وسلم- حقروهم، فأتوه فخلوا به ،وقالوا:إنّا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا،فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد،فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت؛قال: نعم؛قالوا:فاكتب لنا عليك كتاباً،قال:فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب،ونحن قعود في ناحية،فنزل جبريل بقوله تعالي(وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) فرمى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالصحيفة،ثم دعانا فأتيناه".[٣٢]

* ويحكي لنا القرآن في ذلك ما جاء في قصة نوح-عليه السلام- حيث قال له قومه..

"أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ؛قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؛إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ"

سورة الشعراء:١١١-١١٥

* كذلك ما جاء عن فرعون وملىء؛حيث قال عنهم تعالي...

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" سورة القصص:٤

هذه النصوص التأسيسة نزلت معظمها في صدر الإسلام الأول في المرحلة المكية لتُؤسس لوضع اجتماعي جديد قائم علي العدل والإنصاف والمساواة،وإن كلف تأسيس هذا الأمر تأخير إنتشار الإسلام؛فسادة قريش رغبوا في الجلوس مع الرسول في مجلس خاص دون الفقراء والضعفاء ليسمعوا من الرسول دعوته وقد همّ الرسول أن يلبي طلبهم رغبة في إسلامهم ولكن الله سبحانه وتعالى منع رسوله من هذا؛ فالإسلام جاء دعوة للتوحيد ونداء للإنصاف والمساواة ولايمكن أن يسمح بحادثة تقع في صدره تؤصل للظلم وعدم المساواة ،فالناس في نظر الإسلام سواءاً لا فضل لأحدهم علي الأخر إلا بالتقوي والعمل والصالح.

[32]- إسماعيل بن عمربن كثيرالقرشي الدمشقي– تفسير بن كثير - دارطيبة- ٢٠٠٢–سورة الأنعام

ثم إن الإسلام في دعوته للمساواة والعدالة لا يجعل السبيل نحو ذلك هو قمع الأقوياء وتأديب الأغنياء ومصادرة أموالهم،وإنما يدعو الجميع الفقير والغني إلى إلتزام قيم العدالة والمساواة والإنصاف ومراعاة الحقوق الاجتماعية والإقتصادية للمجتمعات والشعوب...كما عبر ذلك الكاتب مصطفي محمود بقوله "فلسفة العدالة الاجتماعية في الإسلام سبيلها مختلف تماماً؛فهي لاتنتصف للفقراء بالإنتقام من الأغنياء،ولكنها تحاول أن تحيي ضمير الأمة وتحاول أن تنشر المحبة والإخاء فتجمع ولا تفرق..وتوحد ولا تُشتت..وتُشجع ولا ترهب،فهي تعالج الأمر من جذوره بأن يضع الغني يده في يد الفقير،ويدفع عن رضاوإقتناع من ماله زكاةً وإنفاقاً،دون أن يُتعدى عليه أحد بنزع ملكية أو فرض حراسة أو إعتقال أو إمتهان أو تعذيب."[٣٣]

الخلاصة الجامعة

وفي نهاية هذه الرحلة بين نصوص القرآن الكريم المباركة وأحاديث السنة النبوية المُشرفة وعلاقتها بالثورة دلالةً وتشريعاً؛نكتشف مدى عظمة هذا الدين الذى جاء لخدمة البشرية،ورفع الظلم عن كاهلها وتحريضها علي العيش في هذه الحياة الدنيا بكرامة وعزة وإباء،فطريق الجنة والفردوس الأعلى لايعني أن يعيش الإنسان في الدنيا ذليلاً منكسراً مُطأطِئ رأسه للطغاة والبغاة؛وإنما جعل الإسلام منافحة المستبدين صلاح للدنيا ورفعة للدين،ولذلك فمعظم النصوص القرآنية والنبوية تدور بين هدم للفساد وإقامة لصروح المساواة والعدالة في النفس والمجتمع والكون.

لأهمية هذه المعالم الكبرى للرسالة المحمدية حرص المصطفى-صلى الله عليه وسلم- أن يجسدها ويجمع شتاتها ويوضح مقاصدها العليا في بيان مُركز ومحدد وخالد؛ فاختار له الزمان المناسب والمكان الملائم والحشد الهائل؛ فكان ذلك في حجة الوادعلى جبل الرحمة وسط أكبر تجمع بشري تجمع حولهفي وقت واحد من بعثته في مكة،حيث بلغ عدد من اجتمع حوله في هذا الموقف قرابة

مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس.*

وصية للثوار وتصويب نحو الهدف

يحرص المؤرخون عادة على تسجيل اللحظات الأخيرة في حياة العظماء والقادة الذين غيروا وجه التاريخ؛ ليقفواعلي مدى تماسكهم بأفكارهم التي كانوا يدعون إليها وهم يفارقون الحياة إما على فراش الموت أو في ساحات الوغى وسط المعارك،ولاشك أن محمد- صلى الله عليه وسلم- كان من أعظم القادة الذين غيروا وجه التاريخ البشري بدعوته ونضاله وتعاليمه الملهمة للبشرية جمعاء؛ولذلك من المهم أن نقف علي أخر وصاياه

٣٣- مصطفي محمود –أكذوبة اليسار الإسلامي –دار المعارف – القاهرة- الطبعة السادسة ١٩٩٥ –ص١٧

*صفي الرحمن المباركفوري – الرحيق المختوم – مكتبة الوفاء – الطبعة الأولي -٢٠٠٢

صلي الله عليه وسلم لنعرف مدى تمسكه وحرصه علي سعادة البشرية عبر تعليمها فلسفة الثورة والنضال ضد منابع الظلم والقهروالإستعباد،وعدم المساواة.

فمن خلال التفكر في خطبة الوادع سنكتشف مدى عبقرية الخطاب النبوي،الثوري،الحاشد،العابر للجغرافيا والتاريخ،والذي يعدّتقدمياً إلى أبعد مدى من حيث القضايا التي طرحها وزمن عرضها وفيما يلي نص هذه الخطبة الجامعة:

قال صلي الله عليه وسلم بعد أن حمد الله وأثني عليه:

"الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.،أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا – ألا هل بلغت اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإن ربا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وقضى الله أنه لا ربا.

وإن أول ربا أبدأ به عمي العباس بن عبد المطلب

وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب

وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية – ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

أما بعد أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحرقون من أعمالكم فاحذروه على دينكم، أيها الناس إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليوطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان – ألا هل بلغت اللهم فاشهد.،أما بعد أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق. لكم أن لا يواطئن فرشهم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً،

وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً – ألا هل بلغت....اللهم فاشهد

أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئ مال لأخيه إلا عن طيب نفس منه – ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

فلا ترجعن بعدى كافراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه، ألا هل بلغت ... اللهم فاشهد

أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى – ألا هل بلغت....اللهم فاشهد قالوا نعم – قال فليبلغ الشاهد الغائب

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من ثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم".[٣٤]

ويحسن بنا أن نقف متأملين هذه الوثيقة النفيسة والغالية والتي تنبع أهميتها من التالي:

١ - هي آخر خطبة ألقاها الرسول-صلى الله عليه وسلم-بجبل عرفات في التاسع من ذي الحجة-١٠هـ- ويمكن اعتبارها أكبر تجمع يحضره المسلمون في ذلك الوقت -نحو ١٢٥ ألفاً من الصحابة.

٢ - أهمية ما ورد فيها من قيم حضارية كبرى متقدمة جداًبالنسبة إلى الزمن الذي قيلت فيه،ومتقدمة بمقارنة بما جاء بعدها من وثائق تخص ما يعرف بإعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

٣ -"تعد خطبة الوادع وثيقة داعمة لآمال الشعوب والأفراد والجماهير في العيش بكرامة إنسانية وعدالة اجتماعية وسياسية ،فما ورد فيها لايمكن حصره فقط في خدمة المجتمع الإسلامي؛وإنما هي وثيقة عالمية التوجه،إنسانية الدافع لا تقف عند حدود الجغرافيا ولا تخوم التاريخ"[٣٥].

٤ - يمكن عمل مقاربة معرفية جديدة للتاريخ الإسلامي مستندة علي إعادة قراءة التاريخ الإسلامي في ضوء تعاليم خطبة الوادع لمعرفة مدى اتساق تاريخ الأمة السياسي والاجتماعي والإقتصادي مع هذه الوثيقة بمعني أن كل إنحراف حصل في تاريخ المسلمين وأدي إلى الضرر والفساد جاء جراء إهمال الوصايا الورادة في هذه الخطبة بشكل أو بآخر

٣٤- صفي الرحمن المباركفوري – الرحيق المختوم – دار الوفاء - المنصورة ٢٠٠٤ – ص ٣٩٢-٣٩٣

٣٥- يوسف محمد عبيدان – مبادىء العلوم السياسية- جامعة قطر ١٩٩٦- الطبعة الثانية ص٣٨

فمثلاً إنتشار الشعوبية والصراع بين الشعوب الإسلامية وظهورالنزاعات العرقية؛إنما يرجع لعواملعديدة أبزرها البعد عن وصية الرسول-صلى الله عليه وسلم- في هذه الخطبة عندما قال "أيها الناس إن ربكم واحد ،وإن أباكم واحد كلكم،لآدم وآدم من تراب،وإن أكرمكم عند الله أتقاكم،وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى"

٥ - لخص النبي-صلى الله عليه وسلم-في هذه الخطبة أحكام الدين ومقاصده؛فأعلن حرمة دماء المسلمين وأعراضهم،كما حظر كل الأعمال التي كانت تتم وفق تقاليد الجاهلية والعواطف الإنتقامية حظراً مطلقاً؛ وألغي صلى الله عليه وسلم التعامل الربوي وشدد على حقوق النساء.

٦ – الوثيقة وضعت يديها علي قضايا البشرية الكبرى التي ستظل تعاني منها وتسعي للخروج منها سواءاً في حياة الرسول-صلى الله عليه وسلم-أو بعد وفاته،قضايا المساواة والعدالة والحرية وحقوق النساء،والسعي إلى إنشاء نظام إقتصاديعادل،واعتبرت هذه القضايا من كليات الدين وجُعل السعي لتحقيقها في دنيا الناس عبادة يتعبد بها المسلم إلى ربه سبحانه وتعالى.

وبُناءً علي ما تقدم من استعراض لآيات القرآن الكريم ونصوص السنة المطهرة وخصوصاً خطبة الوادع،نجد أن الإسلام دين ثوري بإمتياز قلباً وقالباً وممارسةً وفعلاً،فهو حقاً دين تغييري شامل بمعني أنه دين يغذي أتباعه ومعتنقيه برؤية نقدية حيال كل ما يحيط بهم من بيئة مادية أو معنوية،ويكسبهم شعوراً بالمسؤولية اتجاه الوضع القائم،ويجعلهم يفكرون بتغييره ويسعون لذلك فيما لم يكن مناسباً؛"فالسمة الأساسية لهذا الدين أنه يتفادى تبرير الوضع القائم تبريراً دينياً ،ولا يؤمن بمبدأ الرضوخ للأمر الواقع أو إتخاذ موقف اللامبالاة حيال ما يحيط به؛فبعد ملاحظة حركة الأنبياء يتضح أنها تتسم عادة بطابع رافض للوضع القائم ،حيث النزعة الثورية والتمرد علي كل جور وفساد؛وبعد إمعان النظر في حياة الرسل سنجد مثلاً؛موسي نهض وثار في وجوه الأقطاب الثلاثة؛قارون- أكبر رأسمإلى في زمانه،وبلعم بن باعوراء- ممثلاً لأكبر شخصية دينية انحرافية،وفرعون-الذي بيده القدرة السياسية لذلك العصر".[٣٦]

وكما قررنا في مقدمة الكتابإن تأمُلنا في علاقة الإسلام بالثورةسوف يمر بمسارين اثنين هما :

الأول:استقراء المنظومة الفكرية التأسيسة للإسلام - القرآن والسنة- وعلاقتها بالثورة وقد انتهينا منه.

الثاني :معرفةالأثر الذي أحدثه الإسلام في البيئة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية التي نزل فيها واشتبك معها؛وهذا ما سنفصل فيه في الأسطر القادمة..

٣٦- علي شريعتي –دين ضد الدين – دار الأمير للثقافة والعلوم – الطبعة الأولي - ٢٠٠٧

الفصل الثاني

أثر الإسلام في المجتمعات والشعوب

تنزيل الحلم

كثيرة هي المباديء السامية والأفكارالواعدة والمشاريع الفكرية الحالمة التي تسعى إلى تحقيق حلم المدينة الفاضلة وتجسيد قيم المساواة والحرية والعدالةفي دنيا الناس؛ فلا نكاد نجد قرية أومدينة أومحافظة أو دولة إلا وتجد فيها نذيروبشير يدعو الناس إلى رؤية الواقع بشكل مختلف والتطلع نحو المستقبل بخطى أوثق،كما يقول الله سبحانه وتعالى"وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ" فاطر:٢٤

وكل هذا جيد وممتاز ولكن الحكم علي مدى صلاحية الأفكار الحالمة والأحلام الواعدة يكون بمعرفة نتائج تطبيقها علي الأرض، ومدى الإتساق الإجرائي الحاصل بين ما دعوت له وما تحقق فعلاً.

والإسلام كدين خالد جاء لتصويب تصورات البشر حول الله، وضبط القيم الأخلاقية الحاكمة للفعل البشري والعلاقات الاجتماعية السائدة؛فيمكن أن نتعامل معه بإعتباره دعوةإصلاحية حالمة ومبشرة بتحقيق تحسن ملموس في البيئة التي نزل فيها وتحرك لها لنرى فعلاً هل نجح الإسلام في تغييرالواقع وتحسينه أم حصل العكس ولم يفلح في تغيير وجه الحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية السائد في مكة و الجزيرة العربية؟! ولمعرفة الإجابة عن هذا السؤال لابد من الوقوف علي طبيعة الحالة الدينية والاجتماعية والسياسية والإقتصادية التي كانت سائدة في المجتمع المكي والجزيرة العربية قبل بعثة الرسول-صلي الله عليه وسلم- وتبشيره بالإسلام والرسالة ومعرفة نتيجة الإشتباك والتدافع الحاصل بينها بعد نزول الرسالة،وما أفضإليه هذا الإشتباك بين تعاليم الإسلام وسلطان الواقع من تعديل وتهذيبوإعلاء وخفضلهذه الأوضاع السائدة.

المجتمع العربي قبل الإسلام:

مكة قبل البعثة

إذا ذُكرت مكة تعود الذاكرة إلي ابراهيم واسماعيل-عليهمالسلام-ورفعهما القواعد من البيت؛ونداء ابراهيم في الناس بالحج، ودعائه لأهل هذا البيت،وقد إرتبط اسم اسماعيل بالمكان الذي أصبح مركزاً ومآلاً للرسالة الخاتمة؛لتنطلق منه إلى العالم،ولتصبح مكة مركز التاريخ الإنساني كله.

هذه المركزية والعمق التاريخي لمكة الذي يشير إليه القرآن يدعو لمعرفة أحوالها؛وذلك لفهم الأساس الذي قام عليه الإسلام.

يطلق القرآن على مكة اسم "أم القرى" مما يحمل دلالة على محوريتها بين كل القرى الأخرى؛وتقليدها كعاصمة لهذه القرى،ومما لا يحتاج معه إلى تأكيد أن وجود الكعبة المشرفة ومناسك الحج فيها كان العامل

الأكبر في مكانة مكة؛والمركزالمعنوي الذي تتمتع به،إضافة إلى ما كانت تتمتع به أصلاً من حركية تجارية بفضل موقعها على الطريق التجاري البري بين اليمن وبلاد الشام الخصيب؛وممارسة أهلها للتجارة مع مختلف بقاع العالم براً وبحراً،وكذلك المهن المرتبطة بالتجارة،والقرآن الكريم يحفل بالآيات الدالة على ذلك.

المجتمع المكي قبل البعثة

"يحتل المجتمع الجاهلي مساحة كبيرة من آيات القرآن ،إذ بلغت الآيات التي تناولته **١٥٧٥آية،** منها**١٠٩٦آية** مكية و**٤٧٩**آية مدنية، وتشكل عقائد المجتمع الجاهلي نسبة ٥٤% من الآيات،ومعظمها مكي،وقد توزعت القضايا العقدية فيها على ثلاثة محاور وهي :

- الشرك:٥١٤ آية، البعث:٢٨٢ آية، إنكار الوحي : **٦٩ آية"**[٣٧]

هذه المعطيات العددية إن دلت على شيء فإنما تدل على أهمية تلك المرحلة؛ وضرورة معرفتها لما لها من أثر في معرفة التغيير الثوري الذي جاءت به الرسالة الخاتمة؛والتركيز القرآني على مجموعة من العقائد المركزية يشير إلى أهميتها في مضمون الرسالة الجديدة.

وسنحاول استكشاف المحاور الرئيسية للأفكار والعقائد التي كانت سائدة مستلهمين ذلك من آيات القرآن، وسنركزفي ذلك على ثلاثة محاور:

١ -الحالة الاجتماعية

عهد مظلم :

"يُوصف المجتمع الذي سبق البعثة بالجاهلية،وهو وصف وارد في القرآن على بعض الجوانب في ذلك المجتمع؛فهو وصف نسبي ينطبق على الجانب العقدي وما يرتبط به،وبعض العادات الاجتماعية، ولا تصح هذه التسمية من الناحية الثقافية،فلم يكن مجتمع ما قبل البعثة كما تصورته الكثير من المصادر مجتمعاً معزولاً عن العالم،أو لا يعرف من العلوم شيئاً بل العكس،إذ كان لدى العرب أدب ولغة في غاية التطور،وكانت لديهم معارف بالأنساب والتاريخ والفلك،فضلاًعما تقتضيه الحركة التجارية التي كانت سائدة في المنطقة من علم

---

٣٧ -عبد الرحمن حللي- المجتمع العربي قبل الإسلام: دراسة قرآنية- دارسة منشورة علي الإنترنت بتاريخ ٢٠١٢/٥/٢٢-37
http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=197

بالاقتصاد والحساب والكتابة،والدلائل كثيرة على إلمام العرب بالقراءة والكتابة[٣٨] وانتشارها بينهم . هذا التقدم الحضري الذي سبق البعثة يُذكرنا بالبيئات التي بعث بها الرسل من قبل،والتي كانت تتميز بكونها مجتمعات حضرية متقدمة،وربما بلغت شأواً في العلم والتقدم المادي،هذا الجانب المادي عندما يطغى على الجانب الأخلاقي يسود الظلم؛ويصل بالمجتمع إلى مأزق روحي، فيأتي التدخل الإلهي عبر إرسال الأنبياء لتصحيح مسيرة الناس وردهم إلى فطرتهم؛ والإيمان بالله الذي يقتضي العدل،وإعارة الجانب الروحي من حياة الإنسان حقه، فالتقدم المادي لا يستلزم رقياً دينياً أو روحياً، بل ربما كان عائقاً أمام انتشار القيم والمثل التي يحافظ عليها قلة في المجتمع، وهذا ما كان عليه حال المجتمع الذي سبق بعثة الرسول."

والإسلام كدين لم يأت ليهدم كيان المجتمعات ويجعل عاليها سافلها،وإنما جاء ليُعدل ما أصاب المجتمعات من عطب عبر تشجيع الحسن ونفي الخبيث،كما قال رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم: "إنَّما بُعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق" رواه البيهقي

والمجتمع المكي قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان فيه محاسن كثيرة شجعها الإسلام ودعمها مثل قيم الكرم والشهامة والنجدة وغيرها،و كانت هناك مظاهر وعادات اجتماعية قبيحة فشنّ عليها حرباً ضروساً آناء الليل وآطراف النهار حتي قوضها وقضى عليها،وسوف نركز في الأسطر التالية على أهم العادات الاجتماعية السلبية التي كانت سائدة في مجتمع الجزيرة العربية والتي نافحها الرسول-صلى الله عليه وسلم-عبر النص القرآني و نصوص السنة النبوية وتقديم نموذج اجتماعي وحضاري جديد من خلال سلوك الصحابة الكرام علي كافة المستويات،فغالباً تغيير المجتمعات وتشجعها نحو الأفضل يمر بمراحل الإقناع الفكري وتقديم النموذج العملي؛وهذا ما فعله النموذج الإسلامي في قرونه الأولي وكان سبباً في كونه نموذجاً يُحتذى في سرعة تغيير المجتمعات ومقاومة الظواهر الإجتماعية الضارة ،وسوف نركز على ثلاث محاور رئيسة في الجانب الإجتماعي وسنرى من خلالها مدي التغيير الثوري الذي أحدثه الإسلام فيها وهي كالتالي:

١ -**وضع المرأة**

٢ -**الروح القبلية**

٣ -**ظاهرة الرقيق**

[38] - نفس المصدر السابق

١ـ وضع المرأة في المجتمع المكي

القرأن الكريم يُشير إلى أحد شرور الجاهلية في قوله تعالى:"وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ؛يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ"النحل٥٨ـ٦٠

فما أن يُبشر أحدهم بميلاد طفلة له حتي يربد وجهه غضباً،ويعروه السواد خجلاً من وقع هذا الخبر الأليم،فلا يستطع أن يغشى الناس؛فالخبر عنده بلغ من السوء حدا به إلى الرغبة في التواري من القوم،"ويصبح أمامه خياران لايدري أيهما يختار، إما الإبقاء علي حياة الطفلةويتجرع الهوان من المجتمعأو أن يقوم بغسل العار بقتل تلك الطفلة ووأدها".[٣٩]

السؤال هنا كيف عالج الإسلام هذه القضية وتعامل معها؟

لنرى التغيير الثوري الذي أحدثه الإسلام في هذا الملف ويتضح ذلك من خلال التالي :

١ – النص القرآني وقف في وجه هذه الوحشية،فحرم قتل الأطفال تحت أي ذريعة من الذرائع سواءاً في حالة الفقر المتحقق:"وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ "الأنعام-١٥١ ، أو في حالة خشية الفقر قبل حدوثه"وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً" الإسراء-٣١.

ثم كان الإسلام واقعياً ،فإذا لم يستجب الناس لنداء الآيات ووقعوا في قتل البنات جعل الله سبحانه وتعالى عقوبة قاسية وكبيرة لمن قام بهذا الفعل،وجعل العقل البشري يسبح في تصور هذه العقوبة حيث أخبرنا سبحانه أنه سيسأل الضحية فيما قُتلت..فمابالك بسؤال القاتل إذن؟؛فقال تعالي"وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ،بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَت" سورة التكوير:٨-٩

تمييز ظالم :

فمن العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في مكة قبل البعثة"التمييز ضد المرأة" المتمثل في مختلف الجوانب مثل طرق النكاح،والطلاق،والإرث،فالعرب كانت لا ترى للمرأة استقلالاً في الحياة ولا حرمة ولا كرامة،وكانت لا تورث النساء،وكانت تبيح تعدُّد الزوجات من غير تحديد بعدد معين،ويتضح ذلك في حديث عمر بن الخطاب حيث قال:"والله إنّا كنّا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل،وقسَّم لهنّ ما قسم" رواه البخاري

٣٩- محمد فتح الله كولن – محمد مفخرة الإنسانية – مترجم - دار النيل للطباعة والنشر – القاهرة الطبعة الأولي ٢٠٠٩ ص ٢٨

ومن صور هذا التمييز المجحف ضد المرآة قبل البعثة صور التعامل مع المرآة في قضية الزواج.

صور النكاح قبل البعثة:

وتصف السيدة عائشة-رضي الله عنها -كما جاء في صحيح البخاري[٤٠] أنواع النكاح في الجاهلية كتالي:

- النوع الأول: هو النوع المعروف الذي عليه نكاح الناس اليوم،يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها،وهذا الزواج الطبيعي كان أحد صور الزواج.

- النوع الثاني: كان الرجل يقول لإمرأته إذا طهرت من طمثها-حيضها-اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها -أي:من ذلك الرجل الذي اسبضعت منه-فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب،وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد؛هذا النكاح كان يُسمى بنكاح الإستبضاع.

- النوع الثالث: هو النكاح الذي يجتمع فيه الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها،فإذا حملت ووضعت ومرعليها ليال بعد أن تضع حملها؛أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم،وقد ولدت وهو ابنك يا فلان، وتختار واحداً من الناس فتلحقه به، ولا يستطيع أن يمتنع الرجل.

- النوع الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها -وهن البغايا ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً(وهي مشهورة في التاريخ بالرايات الحمر)-فمن أرادهن دخلعليهن؛فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها اجتمعوا لها،ودعوا لها القافة-وهم الرجال الذين يستطيعون تمييز الوالد والولد عن طريق الشبه- ثم يلحقوا ولدها بالذي يرون فيلتحق به"[٤١]

الكلام في زمن الصمت..فعل

ومع بعثة الرسول-صلى الله عليه وسلم-وضعً تصوراً جديداً لطبيعة العلاقة بين المرأة و الرجل،وبني هذا التصور من خلال النداء القرآني بالمساواة بين المرآة والرجل،وهذه النصوص القرانية كانت ومازالت متقدمة جدا بمقارنة بما كان سائداً في تلك الفترة التاريخية في منطقة مكة وما حولها،أو في مقاربات الأمم الأخرى لقضايا المرآة فما بين أمة تُناقش قضية من خلال سؤال معرفي وهو-هل المرآة تنتمي لجنس البشر أما أنها أقل رتبة منه؟؛وأمة أخرى تحملها ذنب الخروج من الجنة!

٤٠- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني -فتح الباري بشرح صحيح البخاري- دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٩

٤١- صفي الرحمن المباركفوري – الرحيق المختوم –دار الوفاء المنصورة ٢٠٠٤ ص٤٨

كان النص القرآني يصدح في بطحاء مكة معلناً ميلاداً جديداً للبشرية ولقيم المساواة والكرامة من خلال إنصاف نصف المجتمع-المرأة-بإعتبارها إنسان له كامل الحقوق والواجبات؛واستمر الإسلام في تكريم المرأة بنتاً وشابة وأماً،ويتضح ذلك من خلال التالي:

* القرآن الكريم ساوى بين الرجل والمرأة في أصل الخلقة،فأمر سبحانه وتعالي بوحدة الأصل الإنساني الذي خلق منه الرجال والنساء في أكثر من موضع من القرآن الكريم؛ من ذلك قوله تعالى:

- "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ"النساء :١

- "وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ" الأنعام :٩٨

- "هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إليهَا" الأعراف :١٨٩

- "خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا"الزمر:٦

وكما ساوى تعالي بينهما في أصل العبودية له وحده فقد ساوي في التكاليف الشرعية ،ولم يفضل جنسًا على آخر،بل جعل مقياس التفضيل هو التقوى والصلاح والإصلاح..

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "الحجرات :١٣

ويتساوى الرجال والنساء وجميع خلق الله في أصل العبودية..

"إِن كُلُّ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمَنِ عَبْدًا" مريم:٩٣

وساوى الله بين الرجال والنساء في أصل التكاليف الشرعية،والثواب والعقاب على فعلها وتركها.

"مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ ُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ"غافر :٤٠.

وقال سبحانه: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ"آل عمران :١٩٥

وقال تعالى: "وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا" النساء :١٢٤

وقال تعالي :"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"النحل:٩٧

كما ساوى سبحانه بين الرجل والمرأة في أصل الحقوق والواجبات...

"وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ"البقرة :٢٢٨

وقال تعالى: "لِلرِجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا"النساء:٧

وَجَـرَّم سـبحانه وتعـالى مـا كـان يفعلـه العـرب قبـل الإسـلام مـن كراهيـة أن يرزقـه الله بـالأنثى .. "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ؛ يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ"النحل : ٥٨-٥٩

ولم تقتصر نصوص الشرع الشريف على المساواة في أصل التكليف،وأصل الحقوق والواجبات،وإنما تعدى الأمر إلى التوصية بالمرأة؛وذلك لرقة طبعها وخجلها أن تطالب بحقوقها،فأوصى الرجال بهنّ خيرًا وأن يتعاملوا معهنّ بالمعروف في أكثر من موضع في القرآن الكريم:

- "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" (النساء :١٩)

-"وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المُحْسِنِينَ" (البقرة :٢٣٦)

- "أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ) (الطلاق :٦)(-

- "فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً" (النساء :٢٤)

- "وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى ءَاتَاكُمْ" (النور :٣٣)

- "فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًا كَبِيرًا" (النساء :٣٤)

-"يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُم أَن تَرِثُواْ النّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعضُلُوهُنَّ لِتَذهَبُواْ بِبَعضِ مَا ءَاتَيتُمُوهُنَّ"النساء-١٩

- "فإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا" البقرة :٢٢٩

كل هذه النصوص معظمها نزلت في المرحلة المكية كانت تغييراً ثورياً شاملاً وعميقاًفي تكريم المرأة وإعادة بناء المجتمع الإنساني علي أسس جديدة وخالدة ينعم بها المسلون حتي تلك اللحظة التاريخية في القرن الواحد والعشرين.

ونختم في موضوع تكريم الإسلام للمرأة بتعليق الصحفية الإنجليزية روز ماري هاوالتي قالت"إن الإسلام قد كرم المرأة وأعطاها حقوقها كإنسانة،وكامرأة،وعلى عكس ما يظن الناس من أن المرأة الغربية حصلت على حقوقها؛فالمرأة الغربية لا تستطيع مثلاً أن تمارس إنسانيتها الكاملة وحقوقها مثل المرأة المسلمة؛فقد أصبح واجباً على المرأة في الغرب أن تعمل خارج بيتها لكسب العيش؛أما المرأة المسلمة فلها حق الإختيارحيث جعل قوامة البيت للرجل"..فمن حقها أن يقوم الرجل بكسب القوت لها ولبقية أفراد الأسرة؛فالمقصود هنا أن على الرجل أن يعمل ليكسب قوته وقوتعائلته؛فالمرأة في الإسلام لها دور أهم وأكبر من مجرد الوظيفة،وهو

الإنجاب وتربية الأبناء،ومع ذلك فقد أعطى الإسلام للمرأة الحق في العمل إذا رغبت هي في ذلك،وإذا اقتضت ظروفها ذلك"[٤٢]

٢ ـ الروح القبلية والتعصب لها

الجانب الآخر الذي كان سائداً من العادات السيئة والذي كان يحمل أكثر من وجه هو ظاهرة الولاء والعصبية بين أفراد القبيلة ومن يدخل في حلفهم،وكان هذا الجانب يمثل رابطة العقد السياسي الذي ينظم المجتمعويقوده ويضمن فيه الأمن والحفاظ على الحوزة ووحدة القبيلة،لكن الجانب الخطير لهذه العادات هو ما تورثه العصبية العمياء من ظلم وإعتداء وسفك للدماء،وذلك بالثأر ومناصرة القبيلةسواء كانت على حق أو باطل.

والحروب المستمرة بين القبائل كانت أمراً طبيعياً،والإغارة على الغير كانت عادة،حتى قال بعضهم:

وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا[٤٣]

يعنيإن لم نجد أحداً نحاربه نحارب أخانا، فمثلاًحرب البسوس المشهورة كان سببها أن رئيس قبيلة بني بكر ضرب ناقة البسوس بنت منقذ،فاختلط لبنها بدمها،فقتلرجلاً من القبيلة الأخرى،فدارت حرب بين بكر وتغلب سنة٤٠هـ، حتى فنوا من أجل ناقة ضُربت!

وكذلك ما وقع بين عبس وذبيان[٤٤]؛وشعر أبي طالب في قصيدته اللامية يبين مدى حمايته لرسول الله، ومدى قوةترابطة العصبية رغم الخلاف في المعتقد:

ونُسلمه حتى نصرع حوله

نُذهل عن أبنائنا والحلائل

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه

ربيعُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

فوالله لولا أن أجيء بسبة

تُجرُّ على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة

من الدهر جداً غير قول التهازل[٤٥]

فقد جاء الإسلام ليصحح هذه المظاهر ويقومها ويهذبها؛فالإسلام لم يأت لهدم القبيلة وإلغاءها وإنما جاء ليكفكف من ضغط الروح القبيلة علي وجدان الإنسان العربي ويضعها في النصاب المحدد لها؛لتكون رافعة

٤٢-عماد الدين خليل- قالوا عن الإسلام- الندوة العالمية للشباب – السعودية – الطبعة الأولى- ١٩٩٢

٤٣- حاكم المطيري – تحرير الإنسان وتجريد الطغيان – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الأردن – الطبعة الأولي -٢٠٠٩ –ص ١١٢

٤٤- لأمام محمد ابوزهرة – تنظيم الإسلام للمجتمع – دار الفكر العربي – القاهرة

٤٥- القصيدة : فيالسيرةالنبويةلابنهشام ٢٧٢/١-٢٨٠

للمجتمع ونقطة صعود وتقدم وليست نقطة إنكسار وتشرذم، فالإسلام دين رحمة وتسامح،ولا يعرف للتعصب وجهاً،وجعل أساس المفاضلة التقوى والعمل الصالح ،وليس اللون أوالجنس؛فهودين إلهي سَمْح كريم، يُعادي التعصب كله، فهو ضد التعصب للجنس أو اللون أو الدم أو الإقليم،وقد قَرَّرَ القرآن الكريم وَحْدَة النوع الإنساني كله، وعودته في الأصل إلى أب واحد وأم واحدة، فقال تعالي..

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا ونِسَاءً"

وأشار القرآن المجيد في سورة الحجرات إلى المساواة بين أفراد هذا النوع الإنساني وشعوبه،وأن أساس التفضيل بين الناس هو التقوى والاستقامة فقال سبحانه

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"الحجرات:١٣

وأكدّ الرسول-عليه الصلاة والسلام-هذا المعنى كثيراً في جملة من الأحاديث و منها هذه الروايات:

*عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ؛ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ". رواه مسلم

* عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:"لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ" رواه أبو داود.

* عنه صلى الله عليه وسلم قال"مَنْ أَعَانَ قَوْمَهُ عَلَى ظُلْمٍ فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الْمُتَرَدِّي يَنْزِعُ بِذَنَبِه"رواهأحمد

*عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ" رواه أحمد وأبو داود والترمذي

وقد أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعدل مع الناس كلهم،وعدم الميل لقرابة،أو صداقة أو هوى،وطَالَبَ القرآن بإلتزام العدل مع الغرباء والأعداء، فقال تعالى..

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنَ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء:١٣٥)

وقال أيضاً سبحانه وتعالي.

"وَأَنْ لَـيْسَ لِلْإِنْسَـانِ إِلَّا مَـا سَـعَى؛وَأَنَّ سَـعْيَهُ سَـوْفَ يُـرَى؛ثُمَّ يُجْـزَاهُ الْجَـزَاءَ الْأَوْفَـى"الـنجم :٣٩-٤٠ وكان عليه الصلاة والسلام يقول لأهل بيتـه"يـا آل محمـد،لا يـأتيني النـاس بالأعمـال وتـأتوني بالأنسـاب،اعملوا فإني لا أُغني عنكم من الله شيئًا"[٤٦]

مدرسة المواطنة الأولى

ولم يكتف الإسلام بالمعالجة الفكرية والوجدانية للتعصب للقبيلة وإنما أنتج نماذج اجتماعية في المرحلة المكية والمرحلـة المدنيـة عـابرة للرابطـة القبيلـة التعصـبية،وكون مجتمعـاً ودولـة قائمـة علـي قـيم العـدل والمسـاواة والكرامة الإنسانية بالمعنى المعاصر قائمة علي أساس المواطنة؛ويكفي أن نستعرض طرفاً من دستور المدنية الذي صاغه محمد-صلى الله عليه وسلم- حتي ندرك مدى التغيير السياسـي والاجتمـاعي العميق-الثـورة-التـي تجسدت في واقع الجزيرة العربية جغرافيا وتاريخياً:فكتب لهم صلي الله عليهم وسلم ما يأتي..

*(يهود بني عوف أُمّة مع المؤمنين،لليهود دِينهم وللمسلمين دِينهم،لهم مَوليهم وأنفسهم،إلا من ظلَم وأثم،فإنه لا يُوتِغ (أي لا يهلك)إلا نفسه وأهل بيتِه..

* "ليهود بني النّجّار مثل ما ليهود بني عوف"

*"وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف"

* "وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف"

* "وأن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف"

*"وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف"

*"وأن ليهـود بنـي ثَعلَبـة مثـل مـا ليهـود بنـي عـوف،إلا مَـن ظلـم وأَثـم فإنّـه لا يُوتِـغ إلا نفسَـه وأهـلَ بيتـه"

* "وأن جَفْنَةَ بطنٌ مِن ثعلبة كأنفسهم"

* "وأنّ لبني الشُّطَيبَة مثل ما ليهود بني عوف، وأنّ البرَّ دون الإثم"

* "وأنّ موالى ثعلبة كأنفسهم"

* "وأن بطانة يهود كأنفسهم"

* وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد-صلى الله عليه وسلم- وأنّه لا يَنحَجِز على ثـأرِ جُرحٍ، وأنـه مَن فَتَك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظَلَم، وأنّ الله على أبَرِّ هذا؛وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم وأنـه لـم يـأثم امرؤٌ بحليفه، وأنّ النصر للمظلوم؛وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛وأنّ يَثرب حرامٌ جوفُها

٤٦- فتوي موقع إسلام أونلاين.

لأهل هذه الصحيفة؛وأنّ الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثِم؛وأنّه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها؛وأنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإنّ مَرَدَّه إلى الله-عز و جل-وإلى محمد رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه؛وأنّه لا تُجار قريش ولا مَن نَصَرها وأنّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب؛وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم، وأنه مَن خرجَ آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة،إلا مَن ظلم وأثم،وأنّ الله جارٌ لمن بَرَّ وتّقى)[٤٧]

ويتضح من هذه النصوص السابقة أن وثيقة المدنية أول وأعظم وثيقة"للمواطنة" و"حقوق الإنسان"في مجتمع مسلم تُصان فيه الحقوق وتؤدى فيه الواجبات وتسود فيه الحريات والتنوع الفكري والتعدد العقائدي وزمالة الشرائع التي أرساها محمد صلى الله عليه وسلم-عقب هجرته المباركة من مكة إلى المدينة.

تسامح متحرك

ولم يكتف الإسلام بهذا الإطار الدستوري المقوض للعصيبة وللروح القبيلة العمياء وإنما أبدع نماذج اجتماعية منفتحةعلي المستقبل ،معلمة للبشرية وحافزة للمجتمع الجاهلي القديم علي مغادرة فضاء التعصب نحو باحة الإخاء الإنساني والتعارف بين الشعوب؛مثل عمر بن الخطاب ذو الحسب والنسب في قريش يقول عن بلال الحبشي رضي الله عنه "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا" يعني بلالاً.

وكان زيد بن حارثة-رضي الله عنه- أسود البشرة وبيع للرسول-صلى الله عليه وسلم-عبداً فأعتقة الرسول-صلى الله عليه وسلم- وجعله حراً وتنباه -أي جعله ابناً له-وكان هذا أمراً لايتصوره أحد وشيئاً غير مستساغ في هذه الوقت؛ ثم جعل ابنه أسامه قائداًعلي جيش فيه كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب؛بل وأعظم من هذا قام النبي-صلى الله عليه وسلم-"بتزويج زيد من زينب بنت جحش التي كانت ذات حسب ونسب وكانت جديرة بأن تكون زوجة نبي"[٤٨]

٣ - الرق وتجارة الرقيق

يُضاف إلى هذه العادات السابقة السيئة "ظاهرة الطبقية والرقّ" التي كانت منتشرة في مكة قبل الإسلام، ولقد حارب الإسلام هذه الظاهرة ؛وشجع على مكرمة العتق التي كانت منتشرة كفضيلة بين الناس.

ولكن من هم الرقيق- العبيد؟

"الرقيق بشر جردوا من الحقوق المدنية وصاروا محلاً وموضوعاً للتملك من قبل الآخرين بإقرار التنظيمات الاجتماعية واعترافها؛ فالرقيق إذاً خرج من دائرة البشر ودخل في نطاق الأشياء التي تباع وتشترى وتملك

٤٧- محمد سليم العوا- في النظام السياسي للدولة الإسلامية – دار الشروق – القاهرة –الطبعة التاسعة ٢٠٠٨ ص ٥١

٤٨- محمد فتح الله كولن – محمد مفخرة الإنسانية – مترجم - دار النيل للطباعة والنشر – القاهرة الطبعة الأولي ٢٠٠٩ ص ٣٧٧

وتوهب وتمارس عليها عناصر حق الملكية؛وتشير مطالعة المصادر التاريخية إلى أن الفرد يُزجّ إلى درك الرق من أحد المداخل الآتية:-

١ -الخطف والقرصنة التي كانت تغذي أسواق النخاسة بموضوع تجارتها من البشر الذين استحالوا إلى أشياء لمحض تمكن الأقوياء منهم.

٢- الحروب والغزوات وما ينجم عنها من أسر يُفضي إلى العبودية.

٣ -القمار والميسر وهو من الآفات الاجتماعية الشائعة؛فكان يتقامر شخصان إلى أن ينتهي الأمر بأحدهما - أو أحد أفراد عائلته- إلى الرق.

٤ - الإعسار في الديّن؛"فحين يعجز الفرد عن سداد ديونه-ولا بد أن يعجز حتماً لأن قناة الربا تعمل لنقل القيمة والثروة دوماً إلى المرابين-حينئذٍ يهوى المدين أو أحد أفراد أسرته في الرق.

٥- أبناء الإماء؛وحيث لا حرية للعبيد في الزواج ،بل إن طاقاتهم الجنسية غالباً ما كانت تُعطل- وقد نهى النبي عن ذلك وجرمه- ومع ذلك لم تكن المسألة تغدو محصورة فقط بأبناء الإماء من الأحرار الذين لا يعترفون بأبنائهم."[٤٩]

فكيف تغلب الإسلام على هذه العادة الاجتماعية وأحدث تغييراً شاملا وعميقاً- ثورياً- في هذا الإطار؟ تاريخياً قاتل الإسلام لتحرير الرقيق والعبيد من خلال التالي:

أولاً: تصحيح النظرة الاجتماعيةاتجاه الرقيق

من أول طرق علاج الإسلام لهذه الظاهرة أن صحح النظرة الاجتماعية لهذه الشريحة من البشر من خلال عده وسائل منها :

١ - التأكيد على الإخوة البشرية عموماً،والتأكيد على إخوة الأحرار والعبيد بشكل خاص من ذلك قوله تعالى.. "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَأَقْسَطُ عِنْدَاللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوآبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُم ْفِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ"الأحزاب:٥

٢ -"نصوص القرآن عامة تفيد بأن نفس العبد كنفس الحر؛فالحر يقتل بالعبد إن قتله،ولو كان القاتل سيده"[٥٠]

ثانياً: إغلاق منابع الرق

٤٩- عبدالجبار السبهاني-الإسلام والرق-دارسة منشورة علي الأنترنت – ٢٠١٢/٥/٢٤

٥٠- محمد أبو زهرة – تنظيم الإسلام للمجتمع - دار الفكر العربي – القاهرة -ص٢٧

بعد أن قوم الإسلام إعوجاج الإعتقاد وإلتواء النفوس انصرف لتسوية المجتمع وأوضاعه،وكان منطقياً أن يبتديء بمنابع الرق فيردمها كما يتضح فيما يلي:

١ - التغليظ في تحريم الخطف والقرصنة: وكان قضاء الله في هذا المصدر من مصادر الرق قضاء مبرماً، فقال تعالى..

"إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"المائدة،٣٣، وهذه العقوبة بقسوتها تتناسب مع شناعة الجريمة؛ فالقرآن الكريم لم يتسامح في سرقة دراهم معدودة،فكيف يتسامح في سرقة خلائف الله المكرمين؛ونجد أن النبي-صلي اله عليه وسلم- يقول أن هناك ثلاثة نفر يخصهم الله بخصومته يوم القيامة ومنهم "رجل باع حراً فأكل ثمنه"!

٢ - تحريم الحروب الأهلية: والمبالغة في تحديد شروط الحرب الجهادية،وضبط نتائجها؛ فقد جعل القرآن الكريم مصير الأسرى إلى أحد أمرين:إما إلى المنّ أو إلى الفداء... "حتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا" (محمد:٤) والكلام تفصيل لعاقبة ما قبله من شدّ الوثاق كما قرر(الآلوسي) في روح المعاني،وقال رشيد رضا:"إن ظاهر التخيير بين الأمرين-يفيد-أن الأمر الثالث الذي هو الإسترقاق غير جائز"

٣ - تحريم الميسر: وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى..

"إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ"المائدة،٩٠

وبذلك قُبرت ممارسة واحدة من الرذائل التي كانت سبباً في ولوج الإنسان وهدة الرق.

٤ - إلحاق أبناء الإماء بآبائهم فما عادوا من وجهة نظر إسلامية أبناء غير شرعيين في المجتمع لأن الإسلام نظّم ذلك ومنع أن يتصل بالأمة أكثر من رجل؛من ذلك قوله تعالى.

"ومَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ؛ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ؛ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ؛ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " النساء:٢٥

وقد اعتبر الإسلام أولاد الرجل من أَمته أولادً شرعيين لهم جميع حقوق الأبناء من الحرائر؛وقد أكدذلك القرآن الكريم في معرض إبطاله لعادة التبني نسبة الأبناء إلى آبائهم، فقال تعالى..

"ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا"الأحزاب:٣-٤.

ثالثاً: تصفية طبقة الرقيق

وبعد أن أحطَ الإسلام بالشروط الموضوعية والإعتقادية التي نجم عنها الرق وكفل حصانة المجتمع المسلم بإزائها؛إلتفت إلى طبقة الرقيق،وقد كان له البرنامج والإجراءات الآتية بصدد تصفيتها:

١ – "تخصيص سهم من الزكاة ينفق في تحرير العبيد.

"إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم"التوبة: ٦٠"[٥١]

٢ - إلزام الأفراد بتخصيص جزء من أموالهم ينفق في هذا الغرض-تحرير الرقاب-فقال تعالى... "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا...) البقرة:١٧٧

ولقد بين الرازي في تفسيره لهذه الآية إن المراد بالإيتاء غير الزكاة المكتوبة،وأنه من الواجبات وليس من التطوع إذ أن"في المال حقوقاً سوى الزكاة".

وهكذا يتجلى لنا أن الإسلام يوجه فوائض الأموال لدى الأغنياء إلى تحريرالأرقاء بعد أن كانت توجه لإستعبادهم.

٣ – المكاتبة:وهي عقد بين العبد وسيده ؛يتعهد فيه الأول بدفع تعويض مالي مُنجم -على أقساط؛ فقال تعالى... "وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ" النور:٥٥

٢ – الحالة الدينية قبل البعثة

معرفة الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية قبل بعثة الرسول-صلى الله عليه وسلم-أمر بالغ الصعوبة لعدم توفر المراجع ذات المصداقية الدقيقة في هذا الإطار؛فكان من المفيد إستقراء هذا الوضع من خلال نصوص القرآن خاصةً المكية منها لأنها إنما جاءت ونزلت علي أكرم الخلق محمد-صلى الله عليه وسلم-في إطار معالجة هذا الواقع المكي علي كافة المستويات؛ونكون بذلك حصلنا علي قراءة أكثر دقة للوضع الديني

٥١- نفس المصدر السابق

خصوصاً في مكة قبل بعثة الرسول-صلى الله عليه وسلم- حيث تطالعنا آيات القرآن بأسماء أديان كانت معروفة ومتداولة لها معتنقوها في ذلك العصر وهم: اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والمشركون وتعريفهم كتالى:

اليهود والنصارى: كانت توجد هناك جالية من اليهود والنصارى في مكة،وكان لهم حضور أكبر في المدينة،وقد اعتنق بعض العرب النصرانية،وكان لبعضهم مكانة متميزة في المجتمع،وكانت تجري بينهم وبين المشركين حوارات وجدل في قضايا مختلفة،وقد تأثر بهم العرب؛وتعلموا منهم بعض الفنون والقصص وأخبار الأنبياء والأمم الغابرة؛فكان لعلمهم بالكتاب تميز على العرب الذين كانوا ينتظرون نبياً يبعث فيهم؛ بينما كان أهل الكتاب يدَّعون أن النبي سيبعث منهم.

وكان لهم تأثير في أفكار العرب الدينية لكن دون أن يتمكنوا من إكتساح الوثنية الجاهلية؛ففضلاً عن كون اليهودية ديانة قومية لا تسعى لإدخال الناس فيها ،فإن أفكارها لا تناسب بيئة العربي الذي يسعى للحصول على الغنائم من الحروب بينما تحرم اليهودية الإنتفاع بها،وكذلك المسيحية لم تكن لتقنع العربي الذي يحب الثأر أن يدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن كما تدعو المسيحية.

المجوس: يقصد الأخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة،وقد وردت لفظة "المجوس" في القرآن علَماً لدين ،فدل ذلك على وقوف أهل الحجاز على خبرهم ومعرفتهم بهم،ولا يُستبعد وجود نفر منهم في مكة والمدينة والطائف وغيرها،ربما وجدوا عن طريق التجارة أو الرقيق،ولم يرد دخول قبائل عربية في المجوسية؛ولهذا كان معظم مجوس جزيرة العرب من الفرس المقيمين في البحرين واليمن وعمان.

الصابؤن: ذُكِر الصابؤن في القرآن ثلاث مرات،وقد اتجه معظم المفسرين إلى جعل المقصود بهم ديانة الصابئة المختلف في عقائد أصحابها بين قائل إنهم من المجوس أو إنهم عُبَّاد الملائكة أو الكواكب أو الشمس، أو إنهم فريق جمع بين مختلف الأديان،ومن هذه العقائد ما طرأ بعد الإسلام. وكل هذه التفسيرات مستبعدة نظراً لذكرهم مع المجوس؛وتصنيفهم مع اليهود والنصارى ذوي الأصل التوحيدي؛مما يرجح كونهم أقرب إلى التوحيد،إضافة إلى أن الكلمة متداولة بين العرب بكثرة،وتدل لغوياً على الميل والإنحراف،وقد استعملها العرب لمن انحرف عن دين القوم وعقائدهم،وبهذا المعنى أطلقوها على من أسلم واتبع الدين الجديد،وكانت تُطلق على من ترك عبادة الأصنام،كما كانت تستعمل في مقام الحنفاء.

الحنفاء: عرف الحنفاء بين المسلمين بأنهم من كانوا على دين ابراهيم من الجاهليين، فلم يشركوا بربهم أحداً؛ ولم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية، ولم يقبلوا بعبادة الأصنام ديناً؛ بل سفهوا تلك العبادة والقائلين بها، وكانت لهم عادات خاصة تميزوا بها،وعلى العموم فإن المصادر لا تساعد على رسم صورة واضحة للحنفاء، فما ورد في القرآن يؤكد أنهم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام، فلم يكونوا من المشركين،بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى،فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى،وكان قدوتهم ابراهيم- عليه السلام."[٥٢]

علاج ناجع

من إبداعات الإسلام الكبرى والتي لاتنفك عنه إلى قيام الساعة هى القدرة معالجة الأمور المتعددة والمتشابكة عبر نص مكثف الدلالات ومنفتح علي المستقبل ومتجاوز للجغرافيا ،فلقد عالج القرآن المكي أدواء الحالة الدينية المنتشرة في مكة بين المكونات الدينية المختلفة بضربات قاصمة علي مفاصل العقائد الدينية المنحرفة.

فمن خلال الانتصار للقضية الكبرى وهي توحيد الله سبحانه وتعالى ونفي الشريك والوالد والوسطاء،واعتبار العلاقة بين الله سبحانه وتعالىعلاقة مباشرة ولا تحتاج إلى كهنة ولا إلى وسطاء وشفعاء،فقد قوض بضربة نجلاء واحدة الكهنوت الديني لعبادة الأصنام وفكرة الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ،وحرر الإنسان من سطوة الوسطاء والدجالين وجعل مصيره وموته وحياته ورزقه بيد إله السماء لا شريك له؛ لا بيد هبل ولا اللات والعُزى،ويكفي أن نستعرض قصار السور المكية والتي كانت تمثل فأساً صلبة تضرب في أطناب الشرك المعشش في عقول أهل مكة وما حولها من الذين بدلوا دينهم.

فكانت هذه المعالجة القرآنية لعقائد الأديان المختلفة في مكة من مشركين وصابئة وأهل كتاب ومجوس.. حاسمة وقادرةعلي تقويض الدجل والشعوذة الدينية المنشرة؛وفي ذات الوقت كانت هذه الآيات المكية سلماً أمناً للباحثين عن الحقيقة والتعرفعلي الله سبحانه وتعالى؛ فقد تعامل النص القرآني مع العديد من أهل هذه الديانات ليس من باب أنهم كلهم مجرمين وإنما أكد أنهم "ليسُواْ سَوَاءا مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ" آل عمران:١١٣

طائفة من قصار السور

٥٢- المجتمع العربي قبل الإسلام-دراسة قرآنية- دارسة منشورة علي الإنترنت بتاريخ ٢٠١٢٥٩/٥/٢٢- عبد الرحمن حللي

* سورة الصمد:" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ؛ اللَّهُ الصَّمَدُ ؛ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؛ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد"

* سورة الكافرون:"قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ؛لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ؛وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ؛وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ؛ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ؛ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

*سورة المسد:"تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ؛مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ؛سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ؛وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ؛فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَد"

* سورة الماعون:"أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ؛ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليتِيمَ؛ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ؛فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ؛الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ؛ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ؛وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ"

يحضرني ونحن في رحاب هذه السور المكية سريعة الحفظ والمكثفة والدامغة لحجج الكفار أن أحد الشباب الثوار كان يقول لي "أن هذه السور تعد بمثابة منشورات ثورية مذهلة كانت توزع علي الجماهير في مكة ؛فهي سهلة التركيب بليغة المعني".

ومن قسمات هذا العلاج القرآني للوضع الديني في المجتمعات التي عمل فيها عمله هي اعتماده في نشر أفكاره علي وسائل البشر،فبظهور النبي الخاتم محمد -صلى الله عليه وسلم-أصبح إنتصار الدين قائم علي ممكنات البشر وسنن الحياة وليس علي ظهور المعجزات؛وقد صرح بذلك القرآن في قوله تعالى.."وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا" الإسراء:٥٩

وقوله تعالى" وما كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون"الأنفال:٣٣.

فأصبح إنتصار الدين ونصرة الرسول-صلى الله عليه وسلم-قائمة علي الحجة

والبرهانوتدافعالحقوالباطل؛شعار ذلك.."قُلْهَاتُوابُرْهَانَكُمْإِنْكُنْتُمْصَادِقِينَ" النمل: ٦٤

وهذا فتح جديد وتغيير شامل في فلسفة إنتصار الأفكار والعقائد؛وتعدّ تغييراً ثورياً عميقاً قائماً إلى الأن.

٣ ـ الحالة السياسية والإقتصادية في مكة قبل البعثة

أولاً: الحالة السياسية

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو وحضر،وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي،حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي،فلم تتصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينهم وحدة الدم والنسبووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعةعلى أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي.

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته،وخصائصه من شجاعة ومروءة وكرم ونحوها، وما تقدم عن الوضع السياسي للقبيلة كان يمثل الجانب المضيء في الحياة القبيلة ولكن الروح القبيلة الطاغية والمتوغلة في مجتمع الجزيرة العربية سببت مصائب كبرى اجتماعية وسياسية،وكما هو معروف غالباً الفساد السياسي يتبعه فساد اجتماعي يتمثل في انتشار الظلم وضياع الحقوق وتهميش الفئات الضعيفة من المجتمع؛ ففساد الرأس السياسي في مجتمع الجزيرة العربية لازمه بصورة بشعة فساد اجتماعي وإقتصادي مثل أكل مال اليتيم وتجارة الرقيق وقهرالمرأة وظلم العبيد والإماء وغيرها من الفواجع والكوراث التي تمتهن كرامة الإنسان؛فأفراد القبيلة ينصرون قبيلتهم دون عقل يفكرأوأذن تسمع أو قلب يرحم ،ويخوضون غمار القتل والسلب دون توقف لمعرفة من المظلوم ومن الظالم؛فذلك لايعنيهم إنما بوصلتهم مضبوطة علي نصره القبيلة سواء بالحق أو الباطلحتي صار شعارهم «انصر أخاك ظالمًا،أومظلوم»

وكان حالهم كما يقول الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق ومن أشهرهذه الحروب حرب الفجار وكان-عدا هذه الحروب الكبرى- تقع إغارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلب العيش أحيانًا أخرى. ولعل من سبب ذلك أن رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان يكون في حد سيوفها؛ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها،وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس.

وقد شاع الظلم بينهم ،فالقوي يأكل الضعيف،والغني يرابي الفقير،وصار الظلم ممدوحاً وأصبح عدم وقوع الظلم منهم علي بعضهم البعض دليلاً ضعفهم وخورهم حتي قال شاعرهم ذاماً قبيلته علي عدم وقوع الظلم منها- من شعر قُريظ بن أُنيف من "ديوان الحماسة" الذي اختاره أبو تمام:

"لو كنتُ من مازن لم تستَبح إبلي
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشَرٌ خُشُن
عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهُم حين يندُبُهم
في النائبات على ما قال برهانا
لكنّ قومي وإن كانوا ذوي عددٍ
ليسوا من الشرِّ في شيءٍ وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً
ومن إساءة أهل السوء إحسانا"[٥٣]

كان هذا وصفاً تقريباً للوضع السياسي والإقتصادي في الجزيرة العربية القائمعلي البناء القبلي الممتد في فضاء الجغرافيا وباحة التاريخ ؛فكل قبيلة تعرف نسبها وقدرها وأراضها وسماءها وتفاخر بذلك وتسعى لكسب المجد الاجتماعي والسياسي من خلال الإغارة علي القبائل الأخرى وممارسة القتل والترويع والظلم الإجتماعي.

فماذا يفعل الإسلام مع هذه المعضلة التاريخية الضاربة في عمق الزمن؟

وكيف ينقل هذا المجتمع القائم مباديء السلب والظلم والقتل نحو فضاء العدل والرحمة والمساواة؟ فهل يقوض البناء الاجتماعي والسياسي من جذورة ويدع المجتمع بلاعمود فقري متماسك؟ أم يعدل ويكفف من الأثار السلبية لهذه الروح القبيلية ويجعلها رافعة للمجتمع وأداة للتماسك ونصره الضعيف وتأديب المعتدي؟

الإسلام اختار أقصر الطرق نحو الإصلاح عن طريق إحداث ثورة عارمة في فلسفة النظر إلى الحياة؛والمجتمع والقبيلة وقدم رؤية جديدة في معاني الإنتماء والولاء؛ تم ذلك عبر محطتين هما:

٥٣- حاكم المطيري- تحرير الإنسان وتجريد الطغيان –المؤسسة العربية للدراسات والنشر –الأردن ٢٠٠٩ – الطبعة الأولي ص١١

الأولي: تفكيك الأفكار القاتلة في القبيلة العربية.

الثانية: تقديم النماذج الملهمة.

المحطة الأولي تفكيك الأفكار: الإسلام وجهاد الظلم

١ - خاض الإسلام عبر تعاليمه الخالدة والمتعبد بها حرباً طاحنة علي عالم الأفكار الضارة في رأس الإنسان العربي في مجتمع الجزيرة العربية عبر رد الإنسان العربي إلىإنسانيته وفطرته الأولي؛وتعريفه بأسئلة الوجود الكبرى وجعل صلب الدعوة الإسلامية في مكة هي دعوة للرحمة والعدل والقسط ؛فيقول الله سبحانه وتعالى...

"الرَّحْمَنُ؛عَلَّمَ الْقُرْآنَ؛خَلَقَ الْإِنْسَانَ؛عَلَّمَهُ الْبَيَانَ؛الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ؛وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ؛وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ؛أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ؛وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ؛وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ" سورة الرحمن:١-١٠

فهذه سورة مكية افتتحها الله باسمه "الرحمن" وذكر الغاية التي خلق من أجلها الإنسان ،ومن أجلها رفع السماء وهي تحقيق العدل والقسط،ثم دعى عبادهإلى إقامة العدل والقسط فيما بينهم وبين ربهم بتوحيده وعدم الإشراك به،وهو من الظلم بل أشد أنواعه،كما دعى القرآن إلى القسط،بل لقد قدم القرآن الكريم إقامة القسط علي توحيد الله؛فقال سبحانه..

"قلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ" الأعراف:٢٩

٢ – نعى القرآن علي المشركين ما هم فيه من ظلم وتظالم حيث كان الظلم فاشياً بكل صوره وأشكاله ومن ذلك..

أ – الظلم الإقتصادي:الذي كان يمارسه الأغنياء في معاملاتهم التجارية في البيع والشراء،وكان أكثر ضحاياه الفقراء والضعفاء.."وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ؛الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ؛ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون" المطففين:١-٣.

ب- الظلم الاجتماعي: كظلم اليتيم وظلم المرأة وظلم الفقير وظلم الضعيف:فقال تعالى... "كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ؛وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ؛وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا؛وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّاجَمًّا" سورة الفجر:١٧-١٩

وقال أيضاً جلّ شأنه..

"أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ؛فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليتِيمَ؛وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ؛فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ؛الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ؛الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ؛وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ"سورة الماعون

المحطة الثانية : إخوة عابرة للجغرافيا

١ - قدم الإسلام نماذج ناجحة علي مستوى العلاقات الإنسانية القائمة علي إخوة الدين والمساواة والإنصاف والإحترام المتبادل،فلقد جمع الإسلام بين صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي وأبا بكر القرشي وجعل منهم أمة واحدة دون الناس.

فقال صلى الله عليه وسلم"سلمان منَا أهل البيت"رواه الطبراني.

وقال عن بلال بن رباح "لقد سمعت خشخشة نعليك في الجنة يا بلال"رواه البخاري.

وبهذه النماذج الحية التي تمشي علي أقدامها وسط المجتمع الجاهلي متجاوزة روح التعصب للقبلية وحمية الجاهلية الأثمة،يكون الإسلام فتح للمجتمع الجاهلي ما يسمي بإمكانية الفعل والتأسي والعيش دون تعصب أو تتطرف.

٢ – إحترم الإنسان الإخوة الإنسانية بشكل عام وجعل لها عدة مستويات،أذكرهنا أني حضرت محاضرة للشيخ الراحل محمد الغزالى وكان يتحدث عن الوطنية فقال"لقد إلتقيت بالأخ شنودة(رأس الكنيسة الأرذوكسية)فإذا بالجمهور يُبدي استهجاناً كبيراً لقول الشيخ (الأخ شنودة) وإثبات الإخوة له؛ فكان رد الشيخ الجميل"الله يقول وإلى عاد أخاهم هوداً"،فهناك إخوة الدين وإخوة الوطن وإخوة الإنسانية،والإسلام يقدر كل هذه الأنواع من العلاقات ويحترمها فيما يفيد المجتمعات والأمم؛فهو يسعي إلى بناء الجسور بين الشعوب لالبناء القلاع والحصون الفاصلة.

٣ – عبادات الإسلام الرئيسية مثل الصلاة والحج وغيرها قائمة علي المساواة؛ ففي صفوف الصلاة تتساقط الرتب ويموت الكِبر ويحيا التساوي وينمو العدل؛فالكل سواء بين يدي الله؛ الوزير بجوار الغفير، والفقير قدمه تلاصق الغني؛والمتعلم بجوار الأمي ،فالمشهد الإيماني في الحج هكذا وبشكل أعمق وأكثر تنوعاً. فعبر نداءات القرآن وشعائر التعبد ونماذج الواقع حارب الإسلام التعصب والتحريض ودعى للقسط والإنصاف، كان هذا علي مستوى العمل الاجتماعي والتعبدي وهما لاينفصلان،ولم يكتف الإسلام بهذه

النماذج الاجتماعية بل تقدم خطوة أخرى تعد أكثر ثورية،وهي إقامة دولة قائمة علي قيم المساواة ورابطة الدين ومباديء المواطنة حتي تترعرع هذه القيم وتنمو دون خوف أو توتر وتُوهب لها الحياة والخلود في دنيا الناس والدول.

النموذج الملهم

من مؤشرات نجاح أي ثورة في المجال السياسي أن يتحكم فريق الثورة والثوار في الإداة التنفيذية ويكونوا هم صناع القرار في الجسم السياسي الذي انتفضواعليه أو ينشؤا واقعاً سياسياً جديداً؛يديرون فيهمقاليد الأمور، وهذا ما تم علي يد الرسول -صلى الله عليه وسلم- في مرحلة إنشاء دولة المدنية المباركة وما تم بعدها من فتح مكة وهيمنة يد الإسلام عليها؛فقد سعى الإسلام لتكوين فضاء اجتماعي جديد بين مكونات المجتمع المكي في الجزيرة العربية قائم علي قيم المساواة والعدل وخاضع لسلطة القانون وليس سلطة الغاب، وجاهد الإسلام في المرحلة المكية طيلة ثلاثة عشر عاماً يدعو لذلك ويسعىآناء الليل وآطراف النهار من أجل أن ينشأ مجتمع الرحمة "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"

ولكن قريش القبيلة الكبرى في مكة وسائر مكونات المجتمع المكي أبت إلا معاندة الرسول-صلى الله عليه وسلم-ومحاربته والتضيق علي دعوة المساواة والمحبة والرحمة، بل شرعت في قتل أصحابه وتعذيبهم في بطحاء مكة وشن حرب نفسية وإقتصاديةعليهم لردهم عن هذه الدعوة التي تساوي بين الأبيض والأسود؛والغني والفقير؛والوزير والغفيروالتي شعارها "كلكم لأدم"،ومع كل هذه الشدائد التي وقعت علي الرسول-صلي الله عليه وسلم-والرعيل الأول من الصحابة الكرام لم يتوقف واستمر في جهاد نشر الرسالة إلي أن ملأت الأفاق.

فالإسلام قدم ثورة حقيقية في الجانبين في مستوى طرح أفكار ورؤى واعدة؛تنافح الواقع الضاغط وتُبشر بالمستقبل الواعد ،وقدم في ذات الوقت النموذج العملي لهذه الأفكار عبر إقامة الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة.

فلم يكتف الإسلام ولا رسوله-صلي الله عليه وسلم- أن تكون رسالته عبارة عن كلمات تكتب علي الرمال ثم تأتي أمواج- الظالمين والطغاة والطواغيت- فتمحوها من الوجود؛وإنما ضربت الدعوة الإسلامية نموذجاً صالحاً وملهماً للبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من خلال إقامة دولة سيادة القانون والمواطنة والمساواة في المدنية المنورة؛ لتكون بذلك أول نموذج لنظام سياسي قائم علي المواطنة والمساواة وخاضع لسلطة القانون في تاريخ الجزيرة العربية،وأصبحت فيه الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية المتعصبة أو

النسبية وهذه ظاهرة يعرفها المجتمع العربي لأول مرة في تاريخه،فلم يجتمع فيه الناس قبل الإسلام إلاعلي أساس من صلات القرابة والنسب.

الفصل الثالث

الإســلام والــشــباب

الحامل التاريخي

فـي جميـع أدوار التـاريخ البشـري كـان الشـباب هـم عمـاد الأمم؛وسـبب نهضـتها؛ومنبع قوتها؛وعاقـدي ألويتهـا؛ووقود حروبها؛ومبعـث فخرهـا وعزهـا؛ فبالشـباب بلغـت دعـوة الله تعـالي؛وأقيم توحيـده فـي الأرض؛وكُسرت جحافل الشرك؛وهدّمت رموز الوثنية؛وبالنظر إلي الفترة الزمنية التي استغرقها الإسلام منذ بعثة الرسول-صلى الله عليه وسلم- وبدأ التبشيربه حتي تجسد هذه القيم الإنسانية الخالدة وتجليها في دولة المدنية المنورة بقيادته صلى الله عليه وسلم امتدت قرابة ثلاث عشرة عاماً ،وهذه المدة الزمنية وجيزة بشكل مذهل قياساً إلى رسالات الأنبياء الأخرين؛وتعد فترة قصيرة جداً، كذلك مقارنة بدورة عمل الثورات التي عادة تبدأ بمرحلة التبشير بالفكرة ووصولاً إلى تحقيق النصروإمتلاك الشوكة والإنتصارعلي الخصوم المعاندين،فكيف تسنى للإسلام حرق المسافات الزمنية واختصار الوقت؟؛وماهي الشرائح العمرية التي حملت القيم الإسلامية وتحركت بها؟

حدث هذا الإنجاز التاريخي للإسلام لعدة عوامل متداخلة ،ولكن أهم هذه الأسباب هي اعتماد الإسلام علي شريحة الشباب الممتلئين حماسة وشجاعة وفروسية،و من خلال استقراء سيرة الرعيل الأول من صحابة الرسول-صلى الله عليه وسلم-سنجد هذه الشريحة ساهمت بوضوح في التمكين للدين والدفاع عنه ، ،فدائما ما نجد الشباب في طليعة المشهد الثوري،ومن خلال استعراض طرف من أعمار الصحابة الكرام عندما أسلموا في المرحلة المكية وغيرها يتأكد لنا مدى مركزية شريحة الشباب في تجسيد حلم الإسلام وقيّمه وحسم معركته مع أهل مكة،وهذه طائفة من أعمار هؤلاء الشباب البواسل:

إنهم فتية آمنوا بربهم

* "علي بن أبي طالب كان عمره ٨ سنوات.

.* الزبير بن العوام وعمره ٨ سنوات

.* طلحة بن عبيد الله وكان ابن ١١ سنة

.* الأرقم بن أبي الأرقم وهو ابن ١٢ سنة

.* عبد الله بن مسعود وهو ابن ٢٤ سنة

* سعيد بن زيد وهو دون العشرين.

.* سعد بن أبي وقاص وهو ابن ١٧ سنة

* مسعود بن ربيعة وهو ابن ١٧ سنة.

.* جعفر بن أبي طالب وهو ابن ١٨ سنة

.* صهيب الرومي وهو دون العشرين

.* زيد بن حارثة وهو في حدود العشرين

.* عثمان بن عفان في حدود العشرين

.* طليب بن عمير وهو في حدود العشرين

* خباب بن الأرت وهو في حدود العشرين.

.* عامر بن فهيرة وهو ابن ٢٣ سنة

.* مصعب بن عمير وهو ابن ٢٤ سنة

.* المقداد بن الأسود وهو ابن ٢٤ سنة

.* عبد الله بن جحش وهو ابن ٢٥ سنة

.* عمر بن الخطاب وهو ابن ٢٦ سنة

* أبوعبيدة بن الجراح وهو ابن ٢٧ سنة

".[٥٤]* عتبة بن غزوان وهو ابن ٢٧ سنة

٥٤- كتاب الدولة الإسلامية-من منشورات-حزب التحرير

مظاهر اهتمام الإسلام بالشباب

ومن أجل الحفاظ علي هذه الطاقة المتدفقة-الشباب-وصيانتها بعيداً عن مواطن الفساد والعطب اهتم الإسلام بالشباب عبر مستويين:

الأول: التأصيل الفكري والوجداني لأهمية مرحلة الشباب عبر النص القرآني والسنة النبوية.

الثاني: المستوي الميداني علي الأرض،حيث أوكل الإسلام إلى الشباب المسلم العديد من الأدوار الكبرى الهامة في تاريخه مثل قيادة الجيوش والسرايا والوفود وهذا يوضح مدى ثقته فيهم.

المستوي الأول تتجلي مظاهره في التالي :

١ - حفل النص القرآني والسنة النبوية المطهرة بالعديد من النصوص التي تثني علي الشباب العارف بربه والمحدد لهدفه والساعي نحو معالى الأمور،سواء كان في صورة رسول شاب أو فتية مؤمنون أو فتاة متبتلة لله-السيدة مريم- أو شاب يلجم شهوته ونزواعته مخافه الله سبحانه وتعالى –يوسف الصديق – وتتجلى بعض هذه النماذج بروعتها في تاريخ الأمة في التالي:

* الخليل ابراهيم -عليه السلام- الذي حمل فأسه وكسر الأصنام وهو شاب؛فقال قومه..

"سَمِعنَا فَتى يَذكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إبرَهِيمُ"الأنبياء:٦٠

فتثبت حين ابتلي؛حتي نجاه الله-تعالي-منهم؛ولما فرح الخليل بشباب اسماعيل-عليه السلام-واستبشر بفتوته

قوته؛وانتظر نفعه ومعونته؛وابتلي بذبحه فاستشاره؛فكانت قوة الشباب-بعد توفيق الله-مثبتة للنبيين الكريمين

ي هذا الإبتلاء؛وكان اسماعيل شاباً يافعاً؛بدليل قوله تعالي...

:فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ لسَّعيَ قَالَ يَبُنَيَّ إنِّي أَرَى فِي لمَنَامِ أَنِّي أَذبَحُكَ فَنظُر مَاذَا تَرَى"الصَّفات:١٠٢

والمعني أنه قد بلغ سن من يمشي مع أبيه في شؤونه؛فكان جواب اسماعيل الشاب معيناً لأبيه في إبتلائه،ومثبتاً له في إمتحانه"قَالَ يَأَبَتِ افعَل مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُنِي إن شَاءَ للَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" الصَّافات:١٠٢

* واختص الله تعالي بالذكر في كتابه الكريم شباباً آمنوا؛فاعتزلوا شِرك قومهم؛وآووا مع كلبهم إلي كهوفهم؛فضرب الله تعالي عليهم النوم ثلاثة قرون وتسعاً؛في قصة هي من أعظم القصص تأثيراً في

النفوس؛ومن أشدها أسراً للقلوب وهي قصة اصحاب الكهف.

"نَّحـــنُ نَقُـــصُّ عَلَيـــكَ نَبَـــأَهُم بـــالِحَقِّ إِنَّهُـــم فِتيَـــةٌ ءَامَنُـــواْ بِـــرَبِّهِم وَزِدنَهُـــم هُـــدى"الكهـــف:١٣ * وبقيت مثل هذه النماذج تظهر وتتألق في سماء تاريخ أمتنا وواقعها فكانوا علماء وعبّاد ومجاهدين وثوار شباب.

ملحمة الهجرة

والهجرة النبوية المباركة نجحت بفضل الله تعالي ثم بتفاني ثلة من شباب قريش؛"فعليّ بن أبي طالب-رضي الله عنه- نام في فراش النبي-صلي الله عليه وسلم- ليخادع المشركين؛ويأخذ أبصارهم عن النبي –صلي الله عليه وسلم- ويحميه من مؤامراتهم؛مع علمه أنه قد يُقتل مكانه.!

و"كانت أسماء بنت أبي بكر-رضي الله عنهما-تجهز الطعام وتذهب به إليهما؛فتشق بطاقها نصفين؛تتحزم بواحد وتحزم الطعام بالأخر؛حتي سميت بذات النطاقين؛وكانت إذ ذاك بنت سبع وعشرين سنة؛وكان أخوها عبد الله شاباً ثقفاً لقناً يزودهما بأخبار قريش كل ليلة ويبيت عندهما؛فإذا كان السَحر عاد إلي مكة لا شعر به أحد؛وكان عامر بن فُهيرة-وقد أسلم وهو في بحر العشرين من عمره-يرعى الغنم حتي يأتي بها إلي الغار فيحلب للنبيّ-صلي الله عليه وسلم-ولأبي بكر –رضي الله عنه-فنجحت الهجرة علي أيدي هؤلاء الشباب"[٥٥]

السفير الشاب

حمل الإسلام والقرآن إلي المدينة المنورة بعد بيعة العقبة مصعب بن عمير- رضي الله عنه- وهو دون الثلاثين؛فكان قبل الهجرة داعية المدينة ومقرئها؛وكان أغني شباب مكة وأعطرهم؛وعلي يديه أسلم سعد بن معاذ-سيد الأوس- وله بضع وثلاثون سنة؛فقام سعد في قومه خطيباً فقال:"كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتي تسلموا؛فأسلموا..فكان من أعظم الناس بركة علي الإسلام.

وعالم الأنصار ومفتيها وقاضيها"معاذ بن جبل-رضي الله عنه-أسلم وهو ابن ثمانية عشر عاماً؛وبعثه النبي صلى الله عليه وسلم-إلي اليمن قاضياً ومعلماً ومفتياً وهو في العشرين من عمره"[٥٦] قال ابن عمر-رضي الله عنه: عرضني رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يوم أحد في القتال؛وأنا ابن أربع عشرة سنة؛فلم يجزني؛وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني" رواه مسلم.

٥٥- صفي الرحمن المباركفوري – الرحيق المختوم – دار الوفاء – المنصورة – ص١٥٦

٥٦- خالد محمد خالد – رجال حول الرسول –دار الفكر – بيروت - ٢٠٠٠

وهكذا كان شباب الصحابة-رضي الله عنهم-يتحملون من المسؤليات ما يليق بقوة الشباب وفتوته وبأسه؛ولم يركنون إلي اللهو والدعة والكسل؛وما فُتحت الفتوح؛ومُصرت الأمصار؛وعزّ الإسلام؛وارتفعت رايته إلا بهم؛وما نتنعم به الأن من التدين بالإسلام بعد قرون من عصرهم ما كان والله إلا بسببهم؛فهم حملة الدين ونقلته.

باعة الأمل عبر العصور

وكما كان الشباب هم وقود الأمل والقوة الدافعة والنهر المتدفق الذي غذى قلب الإسلام بالإنتصار والسيادة، ورافع لوائه عبر العصور فانتصر له في معركته الأولي في مكة ودشن له كيانه المستقل في المدنية المنورة وحمله إلى أصقاع الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ،حتي أصبح من أكثر أديان الأرض انتشاراً واتباعاً، فالشباب كانوا رأس الحربة في جهاد الإسلام ضد الخصوم المعاندين والكفار المقاتلين والطغاة المستبدين الذين أردوا أن يحرموا البشرية من هداية السماء ونور القرآن وضياء السنة فقام الشباب بدور خالد في هذا المسار لتمكين الإسلام وسيادته وانتشاره وتكوين نواه نظامه السياسي المستقل.

وتوالت السنون وتعاقبت الأيام وبدأ الضعف يدب في مفاصل الدولة الإسلامية ووقعت فتن وملاحم متعددة داخل البيت المسلم بداية من معركة الجمل و صفين وغيرها من المعارك الداخلية والتي انحرف بعدها العديد من الحكام المسلمين عن هدي الإسلام في إقامة الحكم علي العدل والمساواة والشورى؛وظهرت أنظمة سياسية جديدة بعد فترة الخلافة الراشدة تختلف عن طبيعة وفلسفة الخلافة الراشدة ،ودخلت الأمة في نظام حكم غير قائم علي الشورى والتراضي،وإنما قائم علي ما يعرف بفقه المتغلب وسيطرة الطرف الأقوى، ونتج عن ذلك إنتشار مفاسد وأدواء اجتماعية لم تكن في المجتمع الإسلامي من قبل مثل الترف وفساد النخبة الحاكمة وظهور المظالم وإستئثار فريق بالسلطة والثروة ،وإنتشار الروح الشعوبية،وهكذا بدأ يدب الضعف والوهن في جسد الأمة الإسلامية"وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ"آل عمران:١٤٠. وهنا فُتحت جهة قتال جديدة للشباب الثوار وكان لازماًعليهم أن ينضالوا فيها جانباً إلى جنب مع مهمة نشر الإسلام بين الأمم ،وهي مهمة تطهير البيت من الداخل ونشر العدل والمساواة بين جنباته وإعادة البناء علي قواعده الأولى لتكون مؤسسة علي القيم الكبرى لهذا الدين الحرية والمساواة والعدالة؛ فهل استطاعت شريحة الشباب عمل ذلك؟

القتال علي الجبهات المفتوحة

ظلت شريحة واسعة من شباب الأمة تُبشر بالأمل وتقود الجماهير من أجل إستعادة مجد وقيم الدولة الإسلامية الأولى التي قامت علي يد الرسول -صلى الله عليه وسلم-والخلفاء الراشدين وتجاهد هذا الإنحراف الحاصل لنظام الحكم الإسلامي الذي تحول إلى مُلك عضوض بداية من ظهور دولة بني أمية،وفي ذات الوقت ترفع لواء الإسلام علي ثغورالجهاد المفتوحة شرقاً وغرباً ،فبينما كانت خيول الشباب المسلم تفتح بلدان أفريقيا وأسيا كان هناك فصيل من الشباب ينافح الظلم داخل الفضاء الإسلامي بعد عصر الخلافة الراشدة ،و"يأتي علي رأسهم الحسين- رض الله عنه(ثورة الحسين٦١ هجري)؛والفارس عبد الله بن الزبير الذي قاد ثورة ضد بني أمية -٦٤ هجرية"[٥٧]؛وتأتي أيضاًثورة علي بن محمد قائد ثورة الزنج العربية ضد العباسيين في هذا الإطار.

شعلة الثورة

التاريخ الإسلامي مرصع بمئات الثورات الداخلية التي قادها الشباب الأفذاذ الطامحين لسيادة الحرية والكرامة والشورى والذين يستوحون نضالهم الدائم من آيات القرآن وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدي الخلفاء الراشدين الذين أحدثوا ثورة إنسانية متجاوزة للجغرافيا ومؤثرة في وقائع التاريخ،وهذه الثورات كان الجانب الأبرز فيها هو النضال السياسي، ولكن قاد العديد من شباب الأمة عبر التاريخ ثورات أخري فكرية وثقافية ضد الجمود الفكري والإنحراف العقدي والفساد الاجتماعي الروحي ،وكانوا فيها رواد متقدمين فكرياً وأخلاقياً من أمثال هؤلاء:

- "أبو الوليد بن رشد :

والذي بدأالتأليف والتنظير وعمره ٣٦ عاماً وخاض معارك فكرية كبرى ضد الجمود وتعطيل العقل المسلم.

- الحسن البصري:

في مسار الإصلاح التربوي والروحي كمجدد في هذا المضمار".[٥٨]

فقد ظلت شريحة الشباب هي القاطرة التي تحمل شعلة المباديء الإسلامية الكبرى،متحركة بها وداعية لها و ثائرة ومناضلة من أجلها منذ بعثة رسول -صلى الله عليه وسلم- مروراً بفترة الخلافة الراشدة ،ودولة بني

٥٧- محمد عمارة – مسلمون ثوار –دار الشروق – القاهرة ١٩٨٨ـــالطبعة ٣- ص ١٤١
٥٨- نفس المصدر

أمية ودولة العباسيين والخلافة العثمانية والتي برز في أوخرها فليسوف الشرقالسيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧) كمجدد وثائر، وبجواره أيضاً كان عبد الرحمن الكواكبي(١٨٥٤-١٩٠٢) وغيره من الثوار الشباب المجددين،إنتهاءاًبمرحلة الدول القطرية الوطنية الحديثة والتي أيضاً برز فيها العديد من الثوار الشباب أمثال الشيخحسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩)[٥٩] مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في مصروالأستاذ أبو الأعلي المودودي(١٩٠٣- ١٩٧٩)[٦٠] مؤسس الجماعة الإسلامية في باكستان؛ وعز الدين القسام في الشام وفلسطين والعالمعبد الحميد بن باديس في الجزائر".[٦١]

واقع جديد وثورة متقده ووعي ثاقب

قيم الإسلام الكبرى كما كانت ملهمة وجذابة للشباب في صدر الإسلام و ظلت هكذا عامل جذب وإلهام لشباب الأمة الإسلامية علي مر الدهور والعصور،فالشباب المسلم ظل وفياً ومخلصاً لمباديء دينهمن خلال تطبيقها علي نفسة أولاً، ثم سعيه لنشرها في الفضاء السياسي والاجتماعي ثانياً وإن كلفه هذا الغالى والنفيس بإعتبارها هي الدين الواجب الإتباع.

والمتابع لمراحل التاريخ الإسلامي الكبرى بعد الخلافة الراشدة لا يمكن أن يتغافل عن المحطات الثورية التي وقعت في هذا التاريخ ،فلم يكن تاريخاً سكونياً مستسلماً لضغوط الواقع الظالم سياسيأ، ولكن ظل المد الثوري بفضل جهود الشباب متجدداً يخبو حيناً وينتفض أحياناً كثيرة، حتي وصلنا إلى الوقت الراهن في القرن الواحد العشرين وفي ظل وضع سياسي ونظم سياسية مختلفة تماماً عن الوضع السياسي الذي كان قائماً حين سقوط لواء الخلافة العثمانية في العام ١٩٢٤؛وتفتيت تركة الرجل المريض وأُنشئت الدول القطرية العربية ، فنحن نعيش في ظل نظام سياسي قائم علي عقد الجغرافيا وليس عقد الدين-الدول القطرية - هذا التغيير في شكل وطبيعة النظام السياسي للدول سنة كونية تشمل كل الأمم والشعوب.

ولكن الثابت الذي لم يتغير في المنطقة العربية والإسلامية هو إنتماء الشعوب العربية لدينها واعتززاها به وحرصها عليه وسعيها للعيش وفق قيمة ومبادئه تحت أي ظرف ،وهذا يؤكد أن انتماء المجتمعات والشعوب للإسلام لاخوف عليه ولايستدعي تعصباً ولا تشنجاً لتأكيده وتوكيده ؛وفتح المعارك الكلامية حول ذلك تجعل المجتمع يدور في حلقات مفرغة لاطائل منها ويستدعي عمليات فرز وتصنيف تفتت طاقة وجهد المجتمع.

٥٩- محمد عمارة- الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري- دار المستقبل العربي – الطبعة الأولي -١٩٨٥- ص٤٦

٦٠- نفس المصدر.

٦١- محمدعمارة – مسلمون ثوار –دار الشروق – القاهرة ١٩٨٨—الطبعة ٣ ص ١٤١

وبحكم إعتزاز الشعوب العربية بدينها الإسلامي وتمسكها به وسعيها لتنزيل مبادئه في الواقع حرصت علي أن يكون النظام السياسي القائم فيها بغض النظرعن نوعه (خلافة، ملكي ،جمهوري ،دستوري...)يعكس قيم الإسلام الكبرى،المهم لدي الجماهير أن تعيش قيم الإسلام وتمشي في حياتهم ومصالحهم وبيوتهم.

وهذا السعي الدوؤب من المجتمعات المسلمة نحو تنزيل قيم الإسلام المقاصدية (الشوري والحرية والكرامة الإنسانية....) جعل قابلية المجتمعات لفلسفة الإصلاح الثوريعالية؛ بغض النظرعن طبيعة النظام السياسي القائم ؛فالشعوب العربية ذكية ولا تعبد الوسائل وإنما تركز علي المآلات والمقاصد ،فهي لاتمانع في تطبيق أي نظام سياسي يحكمها طالما حقق لها الحرية والكرامة والمساواة، وتخضع له طالما كان حارساً وقائماًعلي تطبيق مبادىء الإسلام العلياعلي الأرض وتجسيدها كإجراءات وبرامج وأليات بين المواطنين وتقدم له العون والمدد والذكر الحسن ،وإذا حدث العكس وجاء نظام سياسي أي كان نوعه ؛ولم يجسد آمال الجماهير في العيش بقيم الإسلام الحاكمة ستجد أن شرارة الثورة بدأت تتحرك وسط المجتمع بأشكال شتى بداية من بالنصح والإرشاد ونهاية بالخلع والإبعاد وإن تأخر ذلك بعض الوقت حتي لو ادعى هذا النظام أنه يحكم بالإسلام ويطبيق الشريعة!

وهناك شواهد تاريخية ومعاصرة تثبت أن شعوبنا العربية حية وواعية وأن سرحيويتها يرجع إلى ثقافتها الإسلامية التي تحمل في طياتها بذور الثورة والتمرد على كل بغي وظلم وعدوان مهما كان اسمه أو رسمه أوشعاره؛ فقد ناضلت الأمة الأمويين عندما انحرفوا عن قيم الشورى وإنتفضت ضد العباسيين عندما ظلموا ،وثارت علي العثمانيين عندما بغوا،وغضبت علي الملوك عندما استعبدوا الشعوب وأسقطت الأنظمة العسكرية عندما انتهكت كرامة المواطن وأفقرت الشعب.

وبناءاً علي ما تقدم يتجلى لنا التالي:

١ - أن العقل الجمعي المسلم يتمتع بذاكرة تاريخية متعلقة بمثالية النموذج السياسي الفريد-الخلافة الراشدة - والذي ترى فيه التطبيق الأمثل لقيم العدل والمساواة والكرامة،وتعتبره هو المعيار الذي تقيس به مستوى تطبيق القيم الإسلامية في حياتها،وهذا يمثل تربة ثورية حاضنة للفعل الثوري والتغييري.

فمازال المظلوم في القاهرة يحلم بعدل الفاروق عمر؛والعابد في طهران يحلم بورع سيدنا علي بن أبي طالب؛ والمقيم في مراكش يحن إلى حزم أبي بكر الصديق؛ ومازال الفقير في صنعاء يشتاق إلى رحمة عثمان بن عفان ،فالإسلام صنع النموذج الحضاريالثوري الملهم للأجيال والشعوب.

٢- أن الثورات في التاريخ الإسلاميالقديم والمعاصر كانت نتاج حلم يسكن الوعي العام وشباب يؤمن بهذا الحلم ويسعي بكل جهد وتفان ليجسده في الواقع .

سعي الشباب لتحقيق ذلك علي الأرض جعلهم يستخدمون كافة الوسائل الفكرية والثقافية والشرعية والدستورية والإعلامية النافعة لهم في هذا المعركة؛مثل التحريض علي الطغاه علي أعواد المنابر والإمتناع عن دعمهم – نموذج رفض أبي حنفية-تولي القضاء في فترة حكم بني أمية – ووصولاًإلى الجهاد بالسيف- نموذج ثورة الحسين رضي الله عنه-

فالتاريخ الإسلامي شهد عقد زواج ممنون قائم علي التأبيد بين قيم كبرى عالمة- قيم الإسلام-وشباب ثائر لاتلين له قناة ،ولا ينثي له عزم ،ولا يهدأ له بال حتي يراها تتجسد في كل بيت وشارع، ومؤسسة وهيئة ومدنية وقرية ، ووزارة وحكومة ، ودولة وإقليم، في ربوع الأمة الإسلامية من غانا إلي فرغانة .

الفصل الرابع

الـشـباب وثـورات الـربـيـع الـعـربـي

افتتاحية عصر جديد

وما تشهده الساحة العربية الأن من ثورات جماهيرية هادرة ،بدأت من ثورة الياسمين في تونس الخضراء، وانتقلت شعلتها إلى ثورة الكرامة في مصر العروبة، وتجسدت بطولتها في ثورة ١٧ فبرابر في ليبيا عمر المختار ،وتجلت سلميتها في ثورة اليمن السعيد ،وتفرد صمودها في ثورة الشعب السوري البطل،تنضوي كلها تحت لواء واحد جامع هو سعي المجتمعات العربية لتجسيد القيم الإسلامية الرئيسية في حياتها بعيداً عن الظلم الضاغط والقهر المستبد والاستبداد السياسي الغشوم،ولذلك كان شعار العديد من هذه الثورات هو(عيش- حرية - كرامة إنسانية) فهذه الثورات العربية ليست نبتاً غريباً لا علاقة له بتاريخ المنطقة وثقافتها كما يُروج البعض محاولاً تحليل الوضع الثوري الحالى بإعتباره حصاد لنشر قيم الحضارة الغربية وسط الشباب العربي المثقف في الجامعات الغربية الحديثة، لكن في حقيقة الأمر هذا الربيع العربي ماهو إلا امتداد لمسار ثوري حالم يستلهم قيمه ومبادئه من الثراث العربي والإسلامي ومن رموزه الكبار مثل الشيخ العز بن عبد السلام ،وسيف الدين قطز، والبطل صلاح الدين الأيوبي، وعمر المختار،والشهيد حسن البنا، والبطل عز الدين القسام، والفليسوف جمال الدين الأفغاني والمُربي عبد الرحمن الكواكبي، وزعيم الأمة المصرية سعد زغلول وغيرهم الكثير .

تثوير الملايين

تعد ثورات الربيع العربي افتتاحية جديدة لعصر جديد في تاريخ المنطقة العربية لكونها نقلت الوعي بمركزية القيم الإسلامية الكبرى من فضاء النخبة والمثقفين إلى فضاء الجماهير والشعوب،فالثورات قديماً كان أقرب ما تكون إلى الإنقلابات العسكرية التي تعتمد علي إمتلاك الأداة العسكرية من خلال السيطرة علي الجيش وبالتالي يخضع الجميع ،وكان هذا يحدث أحياناً دون تجذر وانتشار القيم الثورية الكبرى في المجتمعات ،ولكن في هذه الثورات ومع وسائل التواصل الإعلامية الحديثة حصل الفارق الذهبي فأصبحت القيم الإسلامية- الحرية والعدالة والمساواة- نشيداً ينشد في الشوراع والحواري وفيلماً يُبث في الفضائيات، وراوية تُكتب للأجيال، ولوحة فنية تُرسم في الميادين،ووسائل الموصلات..هذا يعني أن الوعي الجماهيري بالقيم الكبرى تمدد طولاً حتي انتظم كل فئات المجتمع وانتشرعرضاً حتي دخل كل قرية ومدينة.

ومعلوم أن الظلم وحده لايفجر الثورات وإنما الوعي به هو سبب الثورة،فكلما ارتفع وعي المجتمعات بعواقب الحرمان من الحرية والعدالة والمساواة أصبحت أكثرقدرة علي النهوض مجدداً واقتلاع البغاة والطواغيت من جذورهم العميقة.

جذر واحد وفروع متعددة

إذن ماهو المشترك بين ثورات الربيع العربي والثورات التي وقعت في التاريخ الإسلامي؟

هناك العديد من أوجه الشبه والتقاطع ومن أهمها :

البحث عن الحلم

أولاً- الثورات التي وقعت في مراحل التاريخ الإسلامي المبكرة وإمتدت علي صفحات التاريخ الإسلامي حتي عصر الخلافة العثمانية كانت تتوق إلى أفق سياسي واجتماعي تنتعش فيه القيم الكبرى الإسلامية وتكون مهيمنة علي الجميع حكاماً ومحكومين-العدالة والمساواة والحرية؛ فالعديد من الثورات الإسلامية وخصوصاً بعد عصر الخلافة الراشدة كانت بوصلتها تُؤشر إلى ضرورة تحرير إدراة الأمة وتمتعها بتطبيق الشورى والمساواة وتحرير الشرعية السياسية للحكام والأمراء وكانت تحاول جاهدة توفير الشريعة الدستورية لنظام الحكم الإسلامي،وفي ثورات الربيع العربي كان الهتاف الرئيس للجماهيروالشعوب(عيش- حرية – كرامة إنسانية) وهذه الكلمات هي تعبيرمبدع بلغة العصرعن مقاصد الإسلام الكبرى؛والتي جمعها الفقهاء في هذه الخماسية(حفظ النفس ،والعرض ،والمال ،والعقل ،والنسل) فالثورات العربية والإسلامية القديمة وثورات الربيع العربي المعاصرة هما جناحي طائرللشعوب العربية والإسلامية للسعي نحو فضاء جديد تظلله الحرية والكرامة والعدالة .ويلاحظ هنا مدى وعي الشباب ثورات الربيع العربي عندما نادوا بتطبيق بمبادىء الإسلام وليس تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ،فالأنظمة المستبدة لا ضيرعندها أن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية،وتفزعها من مضمونها من خلال غياب قيمةالعدل، فالشريعة الإسلامية هي أداة لإقامة العدل وليست كل العدل؛ فالمساواة في فرص التنمية والتشغيل وتوزيع الثروة من دعائم العدل التي لاتقل عن تطبيق الشريعة.

وقود واحد

ثانياً -الشريحة التي فجرت الثورات القديمة والمعاصرة في المنطقة العربية والإسلامية هي نفس الفئة العمرية- شريحة الشباب-"فثورة الكوفة بقيادة الشاب زيد بن علي ضد هشام بن عبد الملك، وثورة يحيي بن

زيد بن علي ضد بني أمية،وجهاد الشاب الثائرمحمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزاكية) ضد عدوان بني أمية وقتال عبد الله بن الزبير ضد الحجاج وغيرها الكثير يؤكد ذلك"[٦٢]

ونحن الأن نري نفس المشهد في ثورات الربيع العربي بداية من ثورة تونس الخضراء التي "بدأت من إحراق الشاب محمد بوعزيزى نفسه يوم ١٢/١٧/ ٢٠١٠"[٦٣]، مروراً بثورية فريق صفحة كلنا خالد سعيد وأعضائها في مصر،وصولاً إلى شباب ثورة ١٧ فبرابر في ليبيا عمر المختار، ونزولاًإلى أرض اليمن السعيد التي انتفضت بفعل الشباب اليمني الباسل في ميادين صنعاء وعدن ،انتهاءاً بصمود الشباب السوري الهصور الذي يقاتل بصدر عاري وعزم لا ينفد ضد نظام بشار الأسد المستبد البالغ القسوة والوحشية ،يتجلي فى كل هذه الملاحم دور شريحة الشباب العربي الثائر وقيادته لجموع الجماهير ضد الطغاة والمستبدين.

وبطبيعة الحال تتفاوت فرص نجاح الثورات وفشلها وفق طبيعة كل عصر ومصر،ووفق البيئة الحاضنة والظرف التاريخي ،فتصدر الشباب للثورات لايعني حتمية نجاحها.

للوقوف على دور الشباب في ثورات الربيع العربي سنحاول الإجابة على هذه المجموعة من الأسئلة في هذا الكتاب:

ماهي طبيعة الفئات المفجرة لهذه الثورات وكيف نجحت في إشعالها؟

ولماذا هبّالشباب العربي الأن؟

لماذا تصدرت شريحة الشباب المشهد الثوري العام في بلدان الربيع العربي؟

وماهي الأدوات التي استخدموها للتواصل مع الجماهير؟

وكيف تغلبوا على التحديات الأمنية الضاغطة؟

وسنبدأ بالسؤال التالي :

لماذا تصدرت شريحة الشباب المشهد الثوري العام في بلدان الربيع العربي؟

يرجع ذلك لعده أمورهامة منها :

٦٢- نفس المرجع السابق

٦٣- مجلة وجهات نظر- القاهرة – العدد ١٤٦-٢٠١١ ص ٢٤

أولاً : البنية الشابة

لنا أن نعلم أن بنية السكان في الدول العربية هي«بنية شابة» وفق التالي:

- التركيب العمري للسكان العرب يعد الأصغر سنًا بين سكان العالم بأسره: حيث تبلغ نسبة الأطفال فيه **(٣٨%)** الذين تقل أعمارهم عن ١٥ عامًا، ونسبة صغيرة تقدربـ **٦%** للذين يبلغون ٦٠ عامًا - فما فوق وهذا علي العكس مما هو موجود في أوربا- القارة العجوز.!

- ترتفع نسبة الشباب بشكل كبير وسط الشرائح السكانية الأخري: حيث "تبلغ شريحة الشباب في مصر الفئة العمرية **(١٥-٣٥ سنة)** نسبة **٣٥%** من إجمإلى السكان، وفي السودان الفئة العمرية **(١٥-٣٠ سنة)** بنسبة **٤١%** من إجمإلى حجم السكان، وفي فلسطين يمثلون **٣٦%**، وفي الأردن يمثلون **٣٠%**، وفي تونس يشكلون **٣٠%** من حجم السكان، وفي لبنان يشكلون **٢٠%**، في اليمن وسلطنة عُمان والسعودية والمغرب يشكل الشباب قرابة **٥٠%** من إجمإلى حجم السكان".٦٤

- تعبر المنطقة العربية هي المنطقة الأكثر شباباً في العالم: حيث"تشكل شريحة الشباب الذين لايتعدون **٢٥** عاماً نسبة **٦٠%** من حجم السكان"[٦٥]

- شريحة الشباب هي الشريحة الأسرع نمواً بين سكان البلدان العربية:من خلال قراءة هذه الإحصائيات الخاصة بالشباب في بلدان العالم العربي كان من المتوقع ظهورأعداد من المبدعين في كافة مجالات الحياة؛ولايعني ما تقدم أن كل هؤلاء الشباب هم ثوار ومناضلين سياسيين؛وإنما كما هو معروف أن الفارق الحضاري والتغييري في حياة الأمم يحصل أولا من خلال توفر فئة مبدعة ورائدة في المجتمع قد لا تتعدي نسبة(٢%)من إجمالى السكان في تلك الدولة أو ذلك الشعب،وهذا ما حدث في ثورات الربيع العربي المعاصرة.

٦٤- ياسر الغرباوي – حركات التغيير والحراك الجماهيري – دار مراصد – الإسكندرية – ٢٠٠٧ – الطبعة الأولي – ص٣٧
٦٥- تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٩ –برنامج الأمم المتحدة الإنمائي

ثانيا :الفاعلية الهادرة

الوجود لايساوي الفاعلية

وجود المادة الخام-البينة الشابة في المجتمع-لايعني الفاعلية والقدرة علي تحريك الأحداث وأخذ زمام المبادرة ولكن الفاعلية تأتي من القيمة النوعية المضافة لهذه المادة الخام – الشباب- بقدر تعلم وثقافة ووعي هذه الشريحة ممكن أن يحصل الفارق ؛"فالتغيير الحضاري غالباً ما يأتي نتيجة لتغيير منظومة الأفكار والقيم في العقول ،وهذا مافعله الإسلام في ثورته التغييرية الكبرى في مهداه الأول في جزيرة العرب،فكانت هناك السواعد العربية الشابة والقادرة ولكن كانت هذه المادة الخام مستنفذة في معارك وهمية طاحنة لا تغني ولا تسمن من جوع"[٦٦]

فجاء الإسلام وعبر تعاليمه العالمة حول بوصلة هؤلاء الشباب نحو القيم السامية والفضائل العليا فتحول عابد الصنم إلى خاضع للرحمن، المغير علي الضعفاء إلى حامي للعدالة ، و من متهجم علي الأعراض والحرمات إلى مناضل يموت في سبيل حمايتها ، من صاحب قلب قاسي إلى صاحب حس مرهف وشاف؛ وعندها حصلت الفاعلية الحضارية للقبائل العربية وسادت المنطقة العربية وقوضت الإمبراطوريات المعاصرة ،في زمن وجيز بشكل حير المؤرخين والباحثين بشكل كبير ،فكيف يتأتي لمجموعة من القبائل البدوية أن تبسط سيطرتها علي ممالك ومدن ضاربة في قلب الجغرافيا والتاريخ.

وهذه قاعدة مطردة في حياة الأمم والشعوب فوجود الكتل الجماهيرية المثقفة والواعية يزيد من فرص النهوض والتحول الحضاري؛ وما حصل في ثورات العربي العربي يندرج تحت هذه القاعدة الحضارية؛فالكتل الجماهيرية الشابة وفيرة العدد توفر لها أدوات ومعارف رفعت سقف فاعليتها وسط مجتمعها،جعلت منها شريحة قيادة وأمل وقاطرة تغيير وجسر عبورللمجتمعاتالعربية نحو فضاء الحرية والعدالة والكرامة.

فكيف أصبحت الشريحة العربية الشابة أكثر فاعلية ؟

وماهي القيم المضافة لها التي مكنتها من قيادة الثورة؟

وماهي الوسائل التي استخدمتها في مسار الثورة ؟

٦٦- محاضرة عن التخطيط الإستراتيجي د.جاسم سلطان – الدوحة- ٢٠٠٩

ومن خلال الإجابة علي هذه الأسئلة السابقة يمكننا أن نقف علي العوامل التي رفعت فاعلية الشباب وجعلت لوجودهم الديموغرافي أثر يتخطي خانة الأرقام و الأعداد ،ومن أهم العوامل التي دفعت الدماء المتجددة في قلب الفاعلية الشبابية أربعة عوامل هى :

الأول : إمتلاك أدوات فاعلة

الثاني : تبني أفكار عالمة

الثالث: تدشن مشاريع فارقة

رابعاً : إنتاج لغة جديدة

عالم الأدوات :

أقصد به الأدوات التي مكنت شريحة الشباب من رفع كفاءتهم وزيادة تأثيرهم في الجماهيرمن خلال صقل مواهبهم ورفع مستوي وعيهم السياسي والثقافي في المرحلة الزمنية الراهنة، فالعديد من الشباب العربي لم يكن ساكناً وصامتاً قبل ثورات الربيع العربي وإنما خاض معارك كثيرة مع المستبدين والطغاة ولكن لم يتمنكوا من إحراز نتائج صلبة مع الإنظمة المستبدة نظراً لعدم إمتلاكهم أدوات فاعلة لبناء قدراتهم والتواصل مع الجماهير-الحساسية العامة-ولكن هناك أدوات دخلت علي شريحة الشباب كانت رافعة لهم وللفعل الثوري العام ومنها :

١ – **إرتفاع مستوي التعليم في المجتمعات العربية خصوصاً وسط الشباب العربي**:

وتجلي ذلك في التالي :

أ - يشكل قطاع الطلاب نسبة كبيرة من فئة الشباب: التي هي في زيادة، فكلما زادت نسبة الشباب ارتفعت معها نسبة الطلاب في المراحل الجامعية، فمثلاً نسبة الشباب في التعليم العالى في ليبيا يشكلون ٥٢% من إجمالى عدد الطلاب في التعليم العإلى.[٦٧]

ب - هناك زيادة في عدد الجامعات العربية:وهناك انتشار إقليمي كبير للجامعات داخل كل قطر

٦٧- الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، الشباب فى منظومة المجتمع المدني، القاهرة.٢٠٠٦

عربي حيث"يبلغ عدد الجامعات العربية حوالى ١٥٠ جامعة مقارنة بنحو ٥٧ جامعة في عام ١٩٨٧م"[٦٨]

ونحن عندما نتكلم عن زيادة عدد الجامعات في البلدان العربية لايقف بنا الأمر فقط علي اعتبار ساحة الجامعة فضاء تعليمي فقط ؛ وإنما "كما هو معهود في بلدان العالم أن فضاء العديد من الجامعات هو ساحة لتبادل الأفكار والتنافس بينها"[٦٩]؛ومحاولة كل فصيل جذب أكبر عدد من الأنصار لفكرته خصوصاً وسط قطاع الشباب والفتيات.

وهناك العديد من الأحداث السياسية المؤثرة في تاريخ بعض البلدان العربية كانت مرتبطة إرتباط وثيق بالحراك السياسي الحاصل في باحات الجامعات العربية مثل أحداث ثورة ١٩١٩ في مصر ،ويكفي أن نعرف أن يوم الطلاب العالمي في ٢١ فبراير من كل عام يوماً هو عيداً مصرياً بإمتياز،وهو اليوم الذي اختارته الامم المتحدة للإحتفال، حيث اشتعلت الحركة الجماهيرية الشعبية عام ١٩٤٦ وكان عمادها وطليعتها لجنة العمال والطلبة حيث نظموا مظاهرة خرجت من جامعة القاهرة بالجيزة بإتجاه كوبريعباس(كوبري الجيزة حالياً) على نهر النيل لعبوره إلى كليات الطب والصيدلة على ضفة نيل القاهرة الأخرى، ففتحت الشرطة الكوبري وأطلقت الرصاص على الطلاب حتى سقط منهم شهداء وجرحى ؛وأصبحت ذكرى هذا اليوم عيداً يحتفل به طلاب العالم سنوياً"[٧٠]

ج - كما زاد عدد طلاب التعليم العالى العربي ٢١٠% مقارنة بعددهم في بداية الثمانينات من القرن الماضي، وهذه النسبة ترتفع أعداد الشباب المهتمين بالشأن العام.

د –ارتفاع نسبة التعليم في المجتمعات العربية (القراءة والكتابة) حيث تبلغ ٧٠،٣% في مصر ،٩٣،٣ في الكويت ،والنسبة الإجمالية في العالم العربي تصل إلى ٧٠،٣ % وهذه نسب تعد مرتفعة مقارنة بفترات زمنية سابقة مما وفر بيئة مساعدة للفعل التغييري"[٧١]

وحتي ندرك أهمية هذا المحور ودوره في توتر المشهد العربي الراهن يُحسن بنا في نهاية هذا المحورأن نستحضر كلام المناضل عبدالرحمن الكواكبي في تحديد طبيعة العلاقة بين المستبد والعلم حيث يقول"لا يخفى على المستبدّ، مهما كان غبياً،ألا استعباد ولا اعتساف إلا مادامت الرّعية حمقاء تخبط في ظلامية الجهل

٦٨- نفس المصدر السابق.

٦٩- محمد خاتمي –الديمقراطية وحاكمية الأمة – مترجم – دار الفكر – دمشق – ٢٠٠٣ الطبعة الأولي

٧٠- http://www.egynews.net/wps/portal/profiles?params=123483

٧١- مجموعة مؤلفين – إشكالية التنمية ووسائل النهوض-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر ٢٠٠٨ الطبعة الأولي ص ١٣٦[71]

والتيه العمياء، فلو كان المستبدُّ طيراً لكان خفّاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل، ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقّف دواجن الحواضر في غشاء الليل، ولكنّههو الإنسان يصيد عالِمَه جاهلُة ،العلم قبسةٌ من نور الله، وقد خلق الله النّور كشّافاً مبصراً، يولّد في النفوس حرارةً وفي الرؤوس شهامةً، العلم نور والظلم ظلام، ومن طبيعة النّور تبديد الظّلام، والمتأمل في حالة كلِّ رئيس ومرؤوس يرى كلَّ سلطة الرئاسة تقوى وتضعف بنسبة نقصان علم المرؤوس وزيادته"٧٢

وكما قالت قيصرة روسيا -كتلينا العظيمة" فالعامة لا يجب أن يتلقوا أي تربية،فإذا ما كانوا يعرفون كثيراً مثلي فسوف يعصونني بالدرجة نفسها التي يطيعونني بها الأن"*

٢ – إمتلاك الشباب لمهارة صناعة الرأي العام والتواصل الجماهيري

بينما كانت الحكومات المستبدة في بلدان الربيع العربي تشدد الحراسة والمراقبة علي مباني الإعلام الحكومية ومحطات الإذاعة والتليفزيون-مثل مبني ماسبيرو-في العاصمة المصرية-القاهرة-عبر الحراسات الأمنية من الخارج وعبر الرقابة التحريرية من الداخل؛ ظناً منهم أنهم بذلك يحجبون حقائق الواقع المرّعن الشعوب العربية ؛كان الشباب الثوار ومعهم العديد من شرائح المجتمع الأخرى قد بدؤا في تقويض هذه الهيمنة الإعلامية الحكومية علي وسائل الإعلام من خلال إستخدام ما يعرف حديثاً بوسائل الإعلام الجديد؛ من خلال عده وسائط منها (مواقع التواصلالإجتماعي المتعددة مثل توتير،وفيس بوك،يوتيوب....إلخ)ويكفي أن نتعرف علي هذه الحزمة من الإحصائيات الخاصة بإستخدام الإنترنت ومواقع التواصل الإجتماعي في العالم العربي حتي ندرك مدى فاعلية وتأثير هذه الوسيلة:

١ - يصل عدد المستخدمين لفيس بوك قرابة **٣٤** مليون شخص، وأنه في مصر وحدها يوجد منهم قرابة **٩** مليون مستخدم.(حسب إحصائيات سي إن إن ٢٠١١)

٢ - حسب التوقعات المستقبيلة سيصبح عدد مستخدمي الأنترنت تحت سن **٢٥** عاماً في العالم العربي سيشكلون قرابة **٣٧** إلى **٤٧ %** من مجموع السكان ما بين عام ٢٠٠٨ إلى ٢٠١٢.

٧٢- الكواكبي- طبائعالاستبدادومصارعالاستعباد-دار كلمات عربية – القاهرة –ص

* مجلة وجهات نظر-عدد فبراير٢٠١١

** نفس المرجع السابق

٣ ـ بحلول عام ٢٠١٥ سيكون عدد مستخدمي الإنترنت **١٠٠ مليون** شخص عربي من أصل **٣١٥ مليون**** ينتمون لمناطق مختلفة من العالم المصرية؛معني ذلك أن إحتكار السلطة والمستبد لوسائل الإعلام قد كُسر علي يد شريحة مؤهلة لإستخدامه كسلاح فعال ومقوض للقهر والقمع والكبت ،وقد تجلي ذلك في الثورتين التونسية والمصرية.

٤ ـ بلغ عدد مستخدمي الإنترنت في تونس **٣ مليون** مستخدم؛وهوما يفوق ربع السكان وبشكل أكثر تفصيلاً بلغ عدد مستخدمي الإنترنت في عام ٢٠١٠ قرابة ٤ مليون مستخدم وهم يمثلون **٣٤%** من عدد سكان تونس[٧٣]

الحمولة الذكية

قد عاد هذا التطور التقني- الإنترنت- بالنفع المباشر علي قطاعات كبيرة من الشباب والمجتمع؛ فعبره تم جني العديد من المنافع المعرفية والإعلامية ومنها :

أ ـ تغطية الإحتجاجات الاجتماعية والسياسية ونقل وقائعها للجمهور في ظل صمت وسائل الإعلام الرسمية.

ب – استخدم مواقع الإنترنت كأداةللاحتشاد يستخدمها الثوار؛ويكفي أن نعرف أن أول دعوة للثورة في مصر خرجت من موقع الفيس بوك" صفحة كلنا خالد سعيد"

ج –تحول الإنترنت أداة للتواصل مع الأخرين وتبادل الأفكار؛فقد نُشرت "العديد من الدراسات التي تتناول أثر وسائل الإعلام الحديثة وخاصة الإنترنت في نشر قيم الديمقراطية في المنطقة العربية" [٧٤] فقد ساهمت في التالي:

١ – إطلاع المجتمعات العربية علي تجارب ومظاهر الديمقراطية في المجتمعات الأخرى ،مما عزز النزعة الديمقراطية في العالم العربي.

٢ – تعلم أساليب الممارسة الديمقراطية ومفرادتها متل النظم الإنتخابية المختلفة ،الحملات الإنتخابية، الحوار السياسي ، المعارضة السياسية ..... إلخ

٣ – تعلم المخاطر التي تنطوي عليها عمليات التحول الديمقراطي في الفترات الإنتقالية.

٧٣- ورقة معلومات – ندوة ثورة الشعب في تونس – المركز العربي للابحاث ودراسة السياسيات – الدوحة ٢٠ يناير ٢٠١١

٧٤- وليد عبد الحي – انعكاسات العولمة علي الوطن العربي –الدار العربية للعلوم والنشر – بيروت – الطبعة الأولي ٢٠١١ص ٥٣

وأذكر هنا أنني في العام ٢٠٠٣ تعرفت علي موقع اسمه "أكاديمية التغيير" أطلقه مجموعة من الشباب المصري المهتمين بنشر وسائل التغيير السلمي عبر الإنترنت ،حيث تخصص هذا الموقع في نشر مجموعة أفلام وثائقية عن عمليات التغيير السلمي في دول أوربا الشرقية وخصوصاً-صربيا-حيث تمكّن طلاب الجامعات في صربيا من تحقيق ثورتهم الملونة ونجحوا في تحقيق أهدافهم في العام ٢٠٠١م وهو إسقاط نظام «سلوفنس ملوسفيش»المستبد.

التجربة الميدانية :

تعتمد شركات السلاح العالمية في ترويج منتجاتها من الأسلحة الفتاكة علي تسجيل وتدوين ماتفعله هذه الأسلحة في ساحة المعارك ،فالميدان العملي هو الكفيل بالكشف عن مدى دقة تصويب هذا السلاح من غيره وعن مدى دقة في إصابة الأهداف؛وهذا ما حصل مع الشباب العربي عندما اختبر قدرة سلاح الإعلام الجديد في الحشد الجماهيري والتواصل مع العالم ضد السلطة الغاشمة والمستبدة التي تكاد تعد علي الناس أنفاسهم وأحلامهم.

ففي الثورتين المصرية والتونسية كسرت "النيوميديا"-إحتكار الأنظمة السياسية للصورة واللقطة المُعبرة والمونتاج السياسي، ومع منتجات الإعلام الجديد سقطت إلى حد كبير سردية الإعلام الموجه – حتى لو أثَّر التليفزيون المصري الرسمي نسبياً على بعض قطاعات الشارع المصري في أحداث الثورة خصوصاً في أيامها الأولى– فعدد القنوات المعبرة عن الشارع صار بحجم وبعدد النضالات والإحتجاجات التي توجد بداخله، لتصبح "النيوميديا" سلاح المستضعفين والمقهورين، واللعنة التي وقعت علي رأس الأنظمة السياسية من حيث لا تدري.!

في الحالة المصرية التي تعتبر ثورة الخامس والعشرين من يناير ابنه خالصة لهذا العالم الحداثي الجديد بكل أدواته وإلياته، يمكن هنا إستحضار نموذجين شهيرين في الثورة سيتم الحديث عنهم في الكتاب: صفحة خالد سعيد وشبكة "رصد" الإخبارية

الحزب البديل :

"فيس بوك" قام بدور الحزب البديل في الوقت الذي سقطت فيه الأحزاب السياسية الكلاسيكية، وعجزت عن القيام بأي دورحقيقي وفعلي في الشارع السياسي.

(فمواقع فيس بوك وتويتر وبقية المواقع الاجتماعية لعبت أدوار الحزب بشكل كامل، بدءً من الاستقطاب المليوني للأعضاء، مروراً بعمليات التوعية والترشيد عن طريق المجموعات والصفحات والتعليقات والدعوات، أما فكرة الحشد فتتم عن طريق صفحة "فيسبوكية" يتعدى عدد أعضاءها عدد أعضاء كل الجماعات والأحزاب السياسية، أو "تغريدة" على موقع "تويتر" تذهب لآلاف الناشطين في آن واحد)[٧٥]

المنشورات الشفافة

صارت عمليات التنسيق والتخطيط وتحديد مواعيد التظاهرات والإعتصامات تتم بالأساس من خلال هذا العالم، ثم تلاشت أو تضاءلت فكرة البيانات والمنشورات الورقية بشكل كبير لصالح وسائل نقل تَحشِد الآلاف في أقل من دقائق؛عملية الترابط الجمعي والإنتماء لمنظومة سياسية تم التعويض عنها في العالم الإفتراضي بفكرة الأصدقاء والمجموعات "الجروب" التي تخلق مساحات تواصل حتى خارج منطقة الإختلاف الأيديولوجي والسياسي والثقافي.

في السابق كان شريط الكاسيت "أيقونة" الثورة الإيرانية، وإلياليوم يدين مؤسسوا الثورة لهذه "الأيقونة الإعلامية"بالفضل لكونها كانت أحد أهم وسائل التعبئة الشعبية، وعمليات التثوير الممنهجة التي استخدمها الخوميني ضد نظام الشاه حتى تم إسقاط الأخير عام ١٩٧٩م"[٧٦].

اليوم الإصدار الحديث للكاسيتأصبح ممثلاً في "بلوج سبوت".."تويتر" .."الفيس بوك" .."البامب يوسر" .."يوتيوب".. كان بمنزلة "الملاك الحارس" و"الراعي الرسمي" للثورات العربية.

وقد عبر شباب ميدان التحرير أن أهمية ودور موقع الفيس بوك عبر حمل لافتات مكتوب عليها عبارات الثناء والشكر لذلك الموقع ومن أظرف هذه اللافتات رفعت لوحة مكتوب عليها " فيس بوك علي كل ظالم "!

الزواج السعيد

ومن خلال ما ينشره الشباب الثوار من ميادين التحرير والتغيير من لقطات ومواد إعلامية نادرة وفريدة علي محطاتهم الرسمية الفردية أحياناً- شبكة الإنترنت - فكما كان الشباب والجماهير تقاتل في الميدان عبر صمودها وثباتها كانت تناضل أيضاً من خلال عدسات الكاميرات وإلتقاط الصورة التي تكشف همجية ووحشية الأنظمة المستبدة ،ومع منع الأنظمة المستبدة للمحطات الفضائية خصوصاً "قنوات الجزيرة" لم يكن

٧٥- مجموعة مؤلفين – يوميات الثورة المصرية – الدار العربية للعلوم والنشر – بيروت –الطبعة الأولي ٢٠١١ ص١٤

٧٦- ابراهيم الدسوقي شتا- الثورة الإيرانية- الطبعة الأولي ١٩٨٦

أمام هذه المحطات إلا إعادة بث ما يصوره الشباب من ميادين الإشتباك والنضال ،وتحول الوضع الإعلامي لصالح الثوار؛حيث أصبح بإمكان كل شاب ثائر يمتلك أداه للتواصل سواء جهاز هاتف نقالاً(موبايل) أو كاميرا أن يكون مراسلاً لهذه المحطات الفضائية ،وفي "مقابلة مع أ.عبد الفتاح فايد– رئيس مكتب قناة الجزيرة في القاهرة – حكي تفاصيل مثيرة تكشف عن مدى نجاح الثوار في كسر التعتيم الإعلامي الذي سعي له النظام فكان يقول "لقد تحول مكتب الجزيرة الإعلامي في القاهرة بعد منع النظام لوسائل الإعلام من البث ونقل الأخبار إلى مكان مكتظ بالشباب الذي يحملون مئات الشرائط المصورة التي تكشف الأحداث وتسجل الوقائع ،وأصبح لدي مكتب الجزيرة مصادر للأخبار في كافة أنحاء جمهورية مصر العربية عبر مراسلين متطوعين من أنفسهم يحرصون علي أيصال الخبر والمعلومة"[٧٧].

وهذا بطبيعة الحال مكّن المشاهد العربي في بيته من معرفة الأخبار فليس كل بيت عربي موصول بشبكة الإنترنت أو به شاب محترف في التعامل مع شبكات التواصل الاجتماعي ،وبالتالي حصل زواج ميمون بين ما يبث للثوارعلي الإنترنت وبين المحطات الفضائية ،فمن خلال إعادة بث ونشر ما كان علي الإنترنت علي شاشات التلفزيون تم توسيع دائرة التواصل الجماهيري؛فمن يمتلك أدوات التواصل مع الإنترنت سيجد المعلومة؛ ومن لا يعرف أصلاً قصة الإنترنت ستصل له الصورة والمعلومة عبر شاشة التليفزيون ،وبهذا يكون تم إنتاج نموذج إعلامي جديد متشابك ومتواصل بين مراسلين ثوار وإنترنت ناشر ومحطات فضائية تعيد إنتاج المادة في شكل يناسب الشاشة التليفزيونية.

من غرائب إبداعات الشباب في كسر التعتيم الإعلامي من قبل الأنظمة المستبدة علي الحراك الثوري من خلال قطع الإرسال وقطع الإنترنت، كنت متابعاً علي لجهود الشباب في التغلب علي هذه المشكلة عبر تسجيل الشرائط المصورة والذهاب إلى المطارات الدولية مثل مطار القاهرة وغيره ومحاولتهم إقناع بعض المسافرين بحمل هذه الشرائط إلى مقرات المحطات الفضائية العالمية مثل الجزيرة وغيرها لتبث من مقرات هذه المحطات حتي تصل للجماهير في بلدانهم عبر موجات الأطباق اللاقطة"[٧٨].

كل ما تقدم من تفاصيل كان يخص بدرجة كبيرة تعامل الشباب مع وسائل التواصل الجماهيري قبل وأثناء الثورة؛ وهنا يأتي سؤال هام وهو..هل ظلت هذه الوسائل تُشكل أهمية للعمل الثوري بعد نجاح الثورات في العديد من البلدان مثل تونس ومصر واليمن وليبيا؟

جهاد متصل

٧٧- مقابلة شخصية مع عبد الفتاح فايد – الدوحة –نوفمبر ٢٠١١

٧٨- مقابلة شخصية مع أحمد عاشور – مؤسس موقع الجزيرة توك – الدوحة –يناير ٢٠١١

من خلال المتابعة والرصد يكتشف المرء أن المعركة مع الاستبداد ورجاله في العالم العربي لاتقف فقط عند اسقاط رأس النظام ورمزه وصنمه الممثل في شخص الرئيس فقط ، فهذه الأنظمة نشئت حولها دوائر من المنتفعين ورجال المال والأعمال والإعلام الذين بات مستقبلهم مهدد بفعل الغضب الجماهيري ومازال هؤلاء يمتلكون ناصية العديد من المحطات الفضائية والصحف اليومية ومازال العديد منهم يخوض معركته الأخيرة المتمثلة في تقويض النفس الثوري وتزهيد الجماهير في قيمتها.

ويستخدمون أداوتهم المتاحة من أجل ذلك من فضائيات،وصحف وإذاعات ،ولكن الشباب العربي الثائر إن كان غادر ميادين الإحتشاد والنضال علي الأرض فمازال يناضل عبرالكاميرا والمقال والحوار والنقاش من أجل فضح رموز النظام البائد وتسجيل مصائبهم التي يقومون بها لتخريب المرحلة الإنتقالية وتقليب الرأي العام ضد الثورة والثوار.

لذلك من الأهمية بمكان بقاء وقود الثورة مشتعل وخصوصاً في الفضاء الإعلامي الذي يستهدف قناعات الجماهير العربية ،و في هذا الميدان أيضاً سجل فيه الشباب عبر إستخدام وسائل التواصل الإجتماعي نجاحات معتبرة منها:

أ ـ كشف أساليب واستراتيجيات رموز الأنظمة المستبدة السابقة للعودة للمشهد السياسي العربي الجديد تحت أسماء وشعارات مختلفة تهدف إلى محاولة ترميم صوره الأنظمة القديمة،وقد أبدع الشباب في هذا الإطار خصوصاً في الحالة المصرية نماذج إعلامية فاعلة تستهدف ملاحقة كل رموز نظام مبارك الفاسد ومن هذه الأشكال مشروع إعلامي علي الإنترنت إسمه "امسك فلول"[٧٩] يستهدف فضح كل المرشحين السياسيين الذين كانوا ينتمون للحزب الوطني الحاكم .

ب – إطلاق مشاريع إعلامية نوعية تستهدف رفع حالة الوعي السياسي العام بمفاهيم الديمقراطية وطرق ممارستها من كتابة الدستور وإجراء الإنتخابات ومعرفة نظم إدارة المراحل الإنتقالية في التحول الديمقراطي؛ ويأتي في هذا الإطار مشروع موقع اسمه "قبيلة" يستهدف رفع الوعي السياسي للشعب المصري-وهو مشروع يعد أحد الثمرات المباشرة للثورة المصرية في مجال التوعية السياسية بإسلوب عصري يناسب الشباب خصوصاً.

ج – إطلاق مشاريع إعلامية تستهدف نشر قيم إدارة الإختلاف واحترام المواطنة وحقوق الإنسان الهدف منها معالجة بعض الأمراض الاجتماعية في المجتمعات مثل التعصب ونشرثقافية الكراهية وعدم قبول الأخر

٧٩- صفحة تفاعلية علي موقع فيس بوك

وهذه أمراض حرصت الأنظمة المستبدة علي تعميقها في جنبات المجتمع وفي هذا الإطار يأتي مشروع إسمه "امسك محرض "[٨٠] والذي يهدف إلى محاصرة المحرضين والمتعصبين وتضيق الخناق عليهم عبر النقاش والحوار وتفكيك الأفكار الإنقسامية في الساحة المصرية.

٣- تبني أفكار عالمة

لنا أن نسأل هنا..هل توفر المادة الخام- الشباب- وامتلاكهم للأدوات الفاعلة من تعليم ووسائل إتصال جماهيرية كان من الممكن أن يحدث ثورة في دول الربيع العربي لولا وجود أفكار عالمة؟؟ نعني هنا بالأفكار العالمة الأفكار المنفتحة علي المستقبل، المتحررة من ثقل التاريخ، المستفيدة من أخطاء الماضي؛والحقيقة أننا نجد بوضوح أن كل تغيير في عالم الوجود تقف خلفه صورة ذهنية مختزنة في العقل؛ فالشخص الذي كون صورة ذهنية عن إمكانية التغيير فإنه يسعي إليه ؛والشخص الذي سيطرت علي عقله فكرة أن حدوث التغيرغير ممكن، وأن الأمور تسير من سيىء إلى أسوء سوف يتسم كلامه بالسلبية وأفعاله بالبرود تجاه أوجاع الأمة وواقعها.!

فبداية التغيير وإكتساب الفاعلية لشريحة الشباب في بلدان الربيع العربي بدأت عندما تعاون أولي الأيدي مع أولي الأبصار(وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ:ص:٤٥)فأولي الأيدي هم أصحاب الفعل الميداني من إعتصامات وإضرابات ومظاهرات وعصيان مدني؛وأصحاب الأبصار هم كل ذوي الرؤى الثورية التغييرية الرائدة في عالمنا العربي بدءاً من جيل الأباء المؤسسيين جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ورشيد رضا وغيرهم إنتهاءً بالمفكر المناضل عبد الوهاب المسيري وغيره من السياسيين والصحفيين والمفكرين.

ورحم الله الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي حارب الإحتلال الفرنسى في الجزائر الذي إستولى علي عقول بعض الجزائريين وخاصة بعض الطرق الصوفية-الطريقة القدرية- التى كان شعارها "إن إحتلال فرنسا للجزائر قدر من أقدار الله وأن مقاومة أقدار الله نقيض الإيمان" وكان نشيدهم(اعتقد ولا تنتقد) فهل يتخيل أحد منا أن يحمل أتباع هذه الطريقة يوماً ما سلاحاً في وجه المحتل الفرنسي ويقاومه؟!،وقد يكون أتباع هذه الطريقة من القوة والفتوة بمكان، ولكن عالم أفكارهم أصابه الشلل والخمود"[٨١]

٨٠- صفحة تفاعلية علي موقع فيس بوك

٨١- مصطفي محمد حميداتو – عبد الحميد بن باديس – كتاب الأمة – الدوحة –الطبعة الأولي ١٩٩٧ص ٥١

ولذلك أصدر الشيخ عبد الحميد مجلة سماها(المنتقد) وفند فيها هذه الأفكار القاتلة التى تقتل القدرة علي الفعل وتبعث علي اليأس والإستسلام وتشل قدرة الشعب الجزائري علي مقاومة الفرنسيين ،فلا بدأن تتحرر العقول أولاً من الأفكار القاتلة لأنها هى العقبة الأكبر والأخطر في مسار التغيير.

وهكذا فعل القائد الهندي(غاندى)عندما فكر في تحرير الهند من التاج البريطاني؛وكان عدد سكان الهند في تلك الفترة سنة ١٩٣٠ قرابة ٣٠٠ مليون نسمة وعدد الجنود الإنجليز ٣٠ ألف جندى، سأل غاندي الهنود سؤالاً جوهرياً كاشفاً من خلاله للشعب الهندي فلسفة عمل الإحتلال والاستبداد الذي قبل أن يسيطر علي الأبدان لابد أن يتحكم في عالم العقول؛فقال لأمة الهند**"من يحتل من؟"**[٨٢]

وأجاب عن سؤاله قائلاً :نحن الذين سمحنا لهم أن يحتلوا أرضنا وثرواتنا وليس العكس وانطلق بشعبه في مسيرات الملح ومقاطعة المنتجات الإنجليزية حتى حرر الهند من التاج البريطاني من دون أن يقتل أحداً، والسر هنا يكمن في أنه غير عالم الأفكار عند الهنود من أنهم ركام لايساوى شيئاً ؛وأن الإنجليز هم القوة والسيادة ..إلى النقيض وهو أن القوة والقدرة وإمكانية الفعل هى بيد الهنود وليس الإنجليز.

وبناء علي ما سبق؛ فما هي الأفكار الكبرى التي سكنت عقول الشباب العربي الثائر ومكنتهم من إحداث الفارق المعرفي ضد الأنظمة المستبدة وأعطتهم القدرة والفاعلية علي تقويض أعتى المستبدين في تاريخ المنطقة العربية والإسلامية الذين ظنوا أنهم خالدين هم وأبنائهم علي مقاليد الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،يمكننا التعريف علي أهم هذه الأفكار من خلال التالي:

أ – إذابة الأيدلوجيا ب – الثقة في الجنود ج – المسار الثالث د - تدبيب السهم

أولا: إذابة الأيديولوجيا[٨٣]

يحسن بنا قبل الخوض في شرح هذه الفكرة الهامة أن نقف علي معني "الأيديولوجيا" وسوف نعتمد في هذا الكتاب علي تعريف أندروهيوود لها بأنها "مجموعة من الأفكار المترابطة بدرجة أو بأخري؛والتي تمثل أساساً لعمل سياسي منظم ،سواء كان الهدف منه حفظ أو تطوير أوهدم نظام توزيع القوة القائم "[٨٤]

وبهذا المعني السابق للأيديولوجيا؛ يتكشف لنا أنها فكرة مركزية مهيمنة تسعي لتطبيق رؤيتها في المجتمعات البشرية عبر تغيير أو تطوير أو هدم النظم السياسية القائمة ، فالأيديولوجيا الشيوعية تسعي إلى بناء دولة

٨٢- ياسر الغرباوي – حركات التغيير والحراك الجماهيري – دار مراصد – الإسكندرية ٢٠٠٧ – الطبعة الأولي ص١٩
٨٣- مجلة وجهات نظر – القاهرة – العدد ١٤٥- ٢٠١١ ص١٨
٨٤- أحمد عبد الحكيم وأخرين – حرب اللاعنف – الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت -٢٠٠٧ – الطبعة الأولي ص٢١

مهمتها تجريد الطبقة البروجوازية لصالح طبقة العمال أملاً في نهاية المطاف من إقامة دولة المشاع-نموذج الثورة البلشفية؛والأيديولوجيا الإسلامية تسعي إلى إقامة دولة تحقق قيم العدالة والمساواة والكرامة وفق المبادىء العليا للإسلام- نموذج الثورة الإيرانية؛والأيديولوجيا اللبيرالية ترى أن الدولة لابد أن تقوم على أساس حرية الفرد وحق الإختلاف،وهو ما يؤسس للمواطنة الحرة بعكس الأيديولوجيات الشمولية التي تصادر حق الفرد لو تعارض معها؛ وكل هذه الأيديولوجيات السابقة لها أنصارها حول العالم ومنتشرة في أصقاع الدنيا شرقها وغربها بما في ذلك المنطقة العربية والإسلامية،فلاتكاد تري دولة عربية أو إسلامية إلا وبها أنصار للأيديولوجيا الإشتراكية والإسلامية واللبيرالبية وغيرها من الأفكار المركزية الكبرى؛ وهذا الإختلاف والتنوع في هذه الأفكار في الأمم التي نهضت وانتقلت إلى فضاء الحرية يعد نقطة قوة للمجتمعات

ويُستفاد به في إدارة شئون الدولة والمجتمع.

ولكن من جانب آخر كان وجود هذه الأيديولوجيات في المنطقة العربية كان سبباً في نزاعات واحتقانات دامية ومؤلمة شوهت العقل والوجدان العربي والمسلم ،وكانت سبباً في إعاقة تقدم المنطقة العربية والإسلامية ،فهل الأيديولوجيا شر مستطير يجب محاربته أم أن لها فوائد وثمار يُمكن الإستفادة منها؟

لايمكن لمجتمع من المجتمعات أن "يحيابدون أفكار مركزية تفسر ماضيه وتتعامل مع واقعة وتبشر بمستقبله حتي يمكن له أن يكون هوية خاصة به وسط شعوب ودول العالم"[٨٥] ؛فالأيديولوجيا هامة ومفيدة ولكن يحصل الخلل في المجتمعات عندما يحصل ما يعرف بكثافة الأيديولوجيا –حسب جاسم سلطان – التى تتسببفي حجب الرؤية ويظهر معها التعصب الأعمي لأن كل فصيل حينها يري أن أيديولوجيته دين واجب الإتباع وأن ما دونها باطل واجب الهدم ؛ويري أنالمخالف له شر محضيجب اقصائه ،فيحصل تنافر بين مكونات المجتمع الواحد ؛ وهذا ماكان قائماً بلدان الربيع العربي قبل الثورة ،فلم نرى تعاوناً كبيراً بين اليساريين والإسلاميين في الساحة المصرية علي مستوي العمل الاجتماعي والسياسي... ولم نشهد تحالفاً قوياً بين الإشتراكيين والليبراليين في تونس ،وبطبيعة الحال في ليبيا لم يمكن مسموحاً بأياختلاف أن يرفع رأسه في ظل حكم الكتاب الأخضر بقيادة العقيد معمر القذافي وهكذا...وبالتالي كان الحديث عن تعاون بين هذه الأيديولوجيات المختلفة في الساحة العربية – الإشتراكية والإسلامية والليبرالية- ضرباً من الخيال والمستحيل.

نقطة التحول :

٨٥- محاضرة مصطفي المرابط –مدير مركز الجزيرة للدراسات سابقا- الدوحة – قطر ٢٠٠٩

وسط هذا الدخان الكثيف في المنطقة العربية الناتج من الصراع الصفري*[٨٦] بين هذه الأيديولوجيات؛خرج الشباب العربي الثائر وقد تخفف من هذا الصراع الأيديولوجي الطاحن الذي أعاق عملية التغيير والنهوض في التاريخ الحديث والمعاصر للمنطقة العربية ،عبر تقديم النموذج العملي؛ فرأينا في ميادين التحرير والتغيير.. الإشتراكي يدافع عن الإسلامي .واليساري يناضل مع الليبرالي..والشيوعي يتعاون مع القومي...حتي بدا المشهد في ميدان التحرير في القاهرة مثلاً وكأنه المدينة الفاضلة التي تحلم بها البشرية منذ أفلاطون والفارابي.

كما عبر عن هذا المشهد كتاب يوميات الثورة "منذ اليوم الأول للثورة كانت صدمة السياسيين والمحللين والناشطين التقليديين، طوفان من البشر يدفعه طوفان من الوعي التلقائي، شارع لم يتعلم معنى التظاهر السلمي؛قابل القمع الأمني ورصاصات الجنود بالورود والهتافات السلمية، وفي الميدان لم يُرفع شعار أيدلوجي أو جبهوي أو طائفي،رغم أن الميدان امتلأ مرات ومرات بالأيدلوجيين والجبهويين وطوائف من هنا وهناك؛كانت الثورة يافطة الجميع، وأيدلوجيته الميدان، والطائفة التي انضم إليها المسلمون والمسيحيون واليساريون والإسلاميون والليبراليون والأهم...المستقلون"[٨٧]

المعالجة الفكرية

ومن روائع الشباب في هذا الباب أن كثافة الأيديولوجيا المعيقة للتعاون والتواصل تم تفكيكها عبر كتابات شابه ؛وهذا يؤكد أهمية أن يسبق الفكر العمل حتي نحصل علي نتائج صلبة تتجاوز أخطاء الماضي. وفي هذا الإطار نستعرض طرفاً من مقال وهو أ/ وائل عادل (أحد مؤسسي أكاديمية التغيير)،حيث عالج إشكالية كثافة الأيديولوجيا في مقال رشيق بعنوان "الكرك" منشور بتاريخ ٦/ ٢٠٠٧/٩ يقول فيه:
" إن الشباب الصاعد لم يشهد صراع الأيديولوجيا في القرن السابق، وليس من الحكمة أن يرث عداء الأفكار قبل أن يدرسها بهدف الإستفادة من أعظم ما توصل إليه الفكر البشري في كل عصر. على الشباب أن يعلم كذلك أنه ليس بالضرورة أن يكون مضطراً لإتباع أيديولوجيات طرحت في القرن الماضي، فهي لم تكن إلا استجابات لتحديات الواقع حينها وتصورات لطريقة تغييره، فليتعرف عليها ويأخذ أعظم ما فيها، ثم يؤمن أن القرن الجديد سيشهد حتماً أطروحاته الجديدة التي ستُعجز هواة تصنيف البشر أن يجدوا للشباب الجديد تصنيفاً في قاموسهم الأيديولوجي القديم"[٨٨].

٨٦* من أنواع الصراع في نهايته تخسر كل الأطراف ولايفوز أحد.
٨٧- مرجع سابق
٨٨-http://aoc.fm/site/

إن القرن الجديد سيشهد شباباً حراً يصوغ أيديولوجيا جديدة قائمة على العلم، وعلى الإستفادة من المعرفة الإنسانية أينما كانت، لا تلفظ التراث* كلية ولا تبالغ في مجاملته، فهي أيديولوجيا ديناميكية وليست استاتيكية، تتطور بتطور العلوم ولا تأبه كثيراً بعبادة أصنام المفكرين ورواد الإصلاح لترتل كلامهم على اعتباره ذكراً سماوياً، أو تدخل في معارك للدفاع عن الأموات منهم وإثبات أحقيتهم بالاتباع. وشباب هذه الأيديولوجيا ليسواعلمانيين أو ماركسيين أو إسلاميين أو ليبراليين بمفهوم القرن الماضي، فهذه المصطلحات تعجز عن أن تبلور فكرهم، لأنهم يدركون عمق التداخل بين الأفكار في الفكر الإنساني، ويؤمنون أن خلف الحقيقة حقائق أخرى خفية لا يظهرها إلا العلم، وأن في ثنايا كل طرح من هذه الأطروحات النافع من الأفكار التي يمكن الإستفادة منها، فليس هناك أبيض وأسود، عالم وجاهل، فالإنسان قد يكون عالماً بقضية وجاهلاً بأخرى، مؤيداً لموقف ومعارضاً لآخر.

إن إنسان القرن الجديد يدرك وجوب التخلص من وهم الأبيض والأسود في العقول، فاللون الأبيض خليط بين الأخضر والأزرق والأحمر بدرجة ٢٥٥ لكل لون، واللون الأسود خليط بين الأخضر والأزرق والأحمر بدرجة لكل لون؛ فالأسود هو نتاج خلطة فكرية معينة، والأبيض هو نتاج خلطة أخرى. والقول بنقاء فكرة وعدم استفادتها من الأفكار الأخرى يعني جمود هذه الفكرة وتجاوز التطور البشري لها، والأفكار تتلاقي في بعض نقاطها وتتنافر كذلك".[٨٩]

وبذلك تكون فكرة إذابة الأيديولوجيا والتخفف من كثافتها صناعة دقيقة تمت علي يد الشباب العربي الصاعد مقدمة لافتتاح عصر جديد مُبشر بالخير؛ متخفف من آلام الماضي المريرة؛مستبشراً بمستقبل أفضل، فأحد شروط الإقلاع الحضاري أن نستثمر تنوع المجتمعات العربية ليكون نقطة صعود ورُقي؛وليس مسار إنكسار وتمزق فلم أرى في خرائط الجغرافيا ولا صفحات التاريخ أمة نهضت في ظل انقسام داخلي وتنافر صارخ بين مكوناتها الوطنية .

ثانياً : الثقة في الجنود

ليست ثورات الربيع العربي الأخيرة نشيداً نشاذاً في معزوفة النضال الجماهيري العربي ،فلم تكون المجتمعات العربية خاملة وراضية بالاستبداد والقهر قبل هذه الثورات؛ فلايمكن وصف شباب هذه المجتمعات في المرحلة السابقة لهذه الثورات بالسلبية والخضوع والإنبطاح للمستبد الغاشم ،فقد قدم العديد من الشباب العربي الغالى والنفيس هو يناضل الأنظمة المستبدة في العالم العربي طيلة العقود المنصرمة عبر أشكال النضال المختلفة

٨٩- جاسم سلطان – التفكير الإستراتيجي.- مكتبة أم القري – الطباعة الأولي ٢٠٠٦

السلمية وغير السلمية ،ولكنه وقع في خطأ استراتيجي قاتل تمثل في تصور الشباب ومعهم العديد من الحركات والأحزاب بأنهم قادرين علي إلحاق الهزيمة بهذه الأنظمة المستبدة عبر احتشادها هي في ملحمة ثورية فريدة دون الحاجة إلى الحشد الجماهيري واستنهاض كامل الشعب ضد المستبد وحكومته.

فبمعني من المعاني "اختار هؤلاء استراتيجية المواجهة بالصدر العاري دون الإستناد إلى ظهير جماهيري حاضن-استراتيجية المسار الساخن "[٩٠]؛والتي تُشير إلى إستخدام العنف،وهذه الإستراتيجية سهلت علي المستبدين الإنفراد بالحركة المناضلة ومحاصراتها عبر الحرب النفسية والملاحقة القضائية والأمنية،مما أنهك هذه الحركات وقضي علي بعضها تماماً في بعض المناطق مثل تجربة الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد في مصر والجماعة الليبية المقاتلة في ليبيا وجبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر.

درس الماضي

علي النقيض من هذه التجربة السابقة تبنت حركة الشباب الثائر في بلدان الربيع العربي استراتيجية جديدة في صراعها مع الأنظمة المستبدة قائمة علي فلسفة الدرع الحصين،بمعني اعتمادها طريقة الحشد الجماهيري والشامل لكل شرائح المجتمع (الرجال – النساء – الشباب – العمال – الفلاحين – الأطباء...إلخ) من الشرائح المختلفة علي مستوي الجنس والعرق والدين والمهنه....في وجه المستبد وعدم الإصطدام بالنظام المستبد وحدها دون غطاء جماهيري حاشد،هذا بطبيعة الحال احتاج إلى إبداعات خلاقة ومذهلة قدمتها شريحة الشباب عبر العديد من الوسائل؛ولكن كان من أهمها الثقة في الجنود – الجماهير – الكثير من الحركات المناضلة وخصوصاً الإسلامية منها كانت تنظر للجماهير والشعوب علي إنها تحتاج إلى إعادة إنتاج وتصنيع ؛وأنها شعوب سلبية ومستكينة ولن تشارك في الفعل التغييري بالدرجة الكافية إلا إذا انخرطت في عضوية هذه الجماعات والحركات وأصبحت متصلة بهذه الحركات والجماعات اتصالاً مباشراً.

وأصبحت هذه الحركات تصدر خطاباً سلبياً للجماهير والمجتمعات لأنها جعلت من عملية التغيير مساراً مفتوحاً علي الزمن وقائماً علي التراخي وليس علي الفور،واضعة شروطاً قاسية لحصوله مثل..لابد من تربية المجتمعات تربية فريدة علي نسق جيل الصحابة الأول ،بمعني أخر لم تتبني خطاباً يتعامل مع الجماهير العربية من كونها عاقلة وراشدة وقادرة علي الفعل؛وبالتالي عندما يعتقد القائد السياسي أو العسكري أن جنوده غير مؤهلين ولايصلحون لخوض غمار الحرب ومعركة الثورة يُشاع في المجتمع جو من عدم الثقة والإنهزامية الذاتية.! وهذا ما تجنبه الشباب عند دعوته للثورة في المجتمعات العربية حيث انطلق الشباب في خطابة للجماهير من

٩٠- نفس المرجع السابق.

زاوية أنها قادرة وواعية وتمتلك مقومات التغيير، ولكن ربما ينقصها الوسيلة المبدعة والذهبية التي تحل عقدة الإستبداد؛ فسعي الشباب إلى عمل معالجات إجرائية لكسر حاجز الخوف والتردد وزرع فلسفة المبادرة في نفوس الجماهير عبر تقديم نماذج نضالية سلمية يمكنها أن تستوعب كل الجهود والتيارات والفئات -أي أنها وفرت مسارب جديدة للفعل الثوري والتغييري تناسب طبائع وأوضاع وأحوال كل مجتمع وذلك عبر عدة وسائل منها :

أ -إعطاء الجماهير (إمكانية الفعل) :لطالما تعمدت الآلة الإعلامية للمستبدين في المنطقة العربية تغيب الجماهير ومحاولة إقناعهم بوهم كبير وهو"عدم إمكانية التخلص من الإستبداد، وأن أي محاولة في هذا المسار ستؤدي إلى فوضي تأكل الأخضر واليابس،فجاءت طلائع الشباب وبشرت بإمكانية التغييروالإنتصار علي المستبدين مع الحفاظ علي المجتمعات والدول .

ب - إقناع الجماهير (بإستراتيجية بناء القدرة)

أعدت العديد من المجموعات الشبابية العربية نفسها إعلامياً عبر إمتلاك وسائل التواصل الاجتماعي.. واجتماعياً عبر الإنتشار في المناطق الشعبية المهمشة والفقيرة ،ونحجت في بناء شبكة تواصل سريعة الحركة والتأثير قبل البدء في العمل التغييري الميداني؛وأصبحت هذه المجموعات تحظي بثقة المواطن في نقل الخبر والصورة والتعليق مما مثل مرحلة متقدمة من بناء قدرات الجماهير والشعوب في تفكيك الخطاب الإعلامي الرسمي ومن أمثلة هذه المجموعة – فريق عمل "شبكة رصد" الإعلامية في مصر – والأهم من ذلك أنها جعلت المواطن مشارك في تغطية الحدث عبر توفير وسائل تواصل مباشرة مع الجماهير؛أصبح فيها المواطن مراسلاً وناقلاً للحدث عبر هاتفه المحمول فيما بات يعرف بإسم (إعلام المواطن).

ج – استراتيجية بناء الجسور

الحركات المناضلة في المنطقة العربية قبل ثورات الربيع العربي كانت قائمة علي الإنكفاء علي الذات؛ويكاد يكون التواصل بين المجموعات المعارضة من أيديولوجيات مختلفة معدوماً ،ناهيك علي أن بعضها قد تورط في صراعات ونزاعات حادة مع بعضها البعض ،فجاء هؤلاء الشباب وقدموا للمجتمع نموذجاً حياً في إمكانية العمل النضالى جنباًإلى جنب؛ بغض النظر عن طبيعة الأيديولوجيا الموجودة في رأس كل فصيل أو جماعة دينية أو وطنية...فظهرت حركة كفاية المصرية في العام ٢٠٠٣ التي تكونت من مكونات سياسية مصرية متعددة المشارب والخليفات ما بين اليسار واليمين والوسط وجمعت بين المسيحي والمسلم واليساري والليبرالي والإشتراكي.. فكانت نموذجاً مُلهماً للعديد من الحركات والكيانات نحو بناء جسور بين بعضها البعض.

وهذا المنجز ساعد في سرعة إنجاز التغيير،فالمستبد دائماً يكره هذا النموذج من العمل..ففلسفته قائمة علي سياسية فرق تسد.

فمن خلال هذه الثلاثية: إمكانية الفعل..بناء الجسور..بناء القدرة) تمكن الشباب من كسب ثقة الجماهير في قدرتها علي الحركة وحسم المعركة لصالحها ،وبذلك بعث الأمل في نفوس الناس من جديد،وهذا بفضل نخبة من الشباب الواعدين الذين نجحوا في نثر الأمل علي الشعوب والمستضعفين.

د ـ المسار الثالث

والأمم والدول والشعوب التي تتعرض لتحديات كثيرة ومتعددة مثل وجود إحتلال جاسم علي صدرها ؛أو مستبد يتحكم في أمرها ؛وكارثة طبيعة تحل بها ..مطلوب منها أن تشذ قواتها وتبني قدراتها للخروج من هذا التحدي بأقل الخسائر الممكنة ، ،وتنتج حلاً لمشاكله السياسية والإقتصادية الاجتماعية...بما يتوافق مع ثقافة وهوية هذا الشعب؛ فليس هناك وصفات قابلة للبيع والتصدير،نعم هناك تجارب وعبر ولكن يظل المضمار مشرعاً أمام كل أمة وشعب أن يترك بصمته في عالم الوجود،"فالتجربة الجنوب أفريقية في التخلص من نظام الفصل العنصري - الأرباتيد- ملهمة وإنسانية ومليئة بالدورس والعبر"[٩١] ولكن لاتصلح مثلاً أن نتعامل بها في الصراع العربي- الإسرائيلي -وإنما يستفاد منها ويستأنس بها.

وهكذا فإن محاولات تخلص الأمم والشعوب من معضلة الإستبداد والقهر والقمع متعددة بتعدد الشعوب والبشر **فكما قال العارفون أن "طرق الوصول إلى الله بعدد أنفاس البشر" كذلك فإن طرق مقاومة الاستبداد لاتقل تنوعاً عن هذا.!**

التجربة العربية والكتاب عن المخرج :

أ ـ مسار الإنقلابات

خاضت الشعوب العربية تجارب متعددة في التخلص من الإستبداد والقهر؛"فتارة استعملت الإنقلابات العسكرية في مرحلة الخمسينيات والستنيات من القرن الماضي نموذج – انقلاب ١٩٥٢- في مصر علي يد الضباط الأحرار"[٩٢] وإنقلاب عام ١٩٧١- بقيادة حافظ الأسد في سوريا ، وإنقلاب حزب البعث ١٩٦٨ في العراق ، ولكن للأسف انتجيت هذه الإنقلابات العسكرية حكومات استبدادية جديدة ولم تطلق الحريات ولم تحافظ علي الكرامة

٩١- نفس المصدر السابق - ص ١٩٧
٩٢- بشير موسي نافع – الأسلاميون – الدار العربية للعلوم ناشرون –بيروت -٢٠١٠-الطبعة الأولي ص٥٥

الإنسانية للمواطن العربي ،وجعلت المجتمعات العربية ساحة مفتوحة للتشاحن والصراع الأيديولوجي خصوصاً بين الفكرة الإسلامية والفكرة القومية ،وكانت الخسائر الاجتماعية والسياسية فادحة فلم يتحقق حلم النهوض ولم يكتمل أمل تحرير فلسطين من يد الإحتلال الإسرائيلي بل "تمدد في فضاء الأرض العربية ووسع مساحة الأرض القابض عليها مثلما حدث في عام نكسة العام ١٩٦٧ والتي انتهيت بهزيمة منكرة للجيوش العربية"[٩٣] ونتج عنها احتلال الجولان والقدس وشبة جزيرة سيناء .

ب ـ مسار الدم

إزاء هذا الإستبداد العسكري القابع علي صدر الأمة العربية بداية من فترة الإنقلابات العسكرية في خمسينات وستنيات القرن الماضي حتي مشارف القرن الواحد والعشرين ومع إنسداد المسار الديمقراطي،فالإنتخابات يجري تزوريها بشكل فاضح وكبير ومكشوف ،وليس هناك في العديد من الدول العربية فرصة لتأسيس أحزاب مدنية تنافس علي السلطة ؛ فهي في الغالب فكرة الخضوع لفكر الحزب الأوحد المهمين علي مفاصل الدولة مثل نموذج حزب البعث السوري،ونموذج القذاقي الذي كان من شعاراته "من تحزب فقد خان "؛وبالإضافة إلىإمتهان كرمة المواطن العربي وخصوصاً المعارض السياسي ،فقد فتحت السجون الحربية وتم قتل المعارضين والتضيق علي الحريات ومصادرة الأقلام الحرة وإغلاق الصحف المستقلة...إلخ من مظاهر قمع الحريات وانتهاء حقوق الإنسان ،فإزاء هذا الإنسداد برزت جماعات العنف السياسي والتي انتشرت في بداية فترة السبينعيات حتي تسعينيات القرن الماضي؛ وبعض هذا الجماعات قام علي أساس ديني عقدي مثل الجماعة الإسلامية في مصر وجماعة الجهاد وغيرها من الأسماء الأخرى؛ وخاضت هذه الجماعات صراعاً ساخناً بالسلاح والدم ضد الأنظمة الشمولية المستبدة والتي أغلقت أمام الشعب كل منافذ تنفسعبير الحرية والمساواة ،ونتج عن هذا الصراع العنيف في المجتمعات العربية فواجع اجتماعية وسياسيةتصل إلى مرحلة الحروب الداخلية ؛فيكفي أن نعرف أن عدد الضحايا الذين سقطوا في صراع الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر مع الحكومة العسكرية قرابة ٢٠٠ ألف مواطن جزائري ،وناهيك عن عدد المعتقلين والمفقودين.!

وللأسف هذا المسار أيضاً لم ينتج تغييراً حقيقاً في المجتمعات العربية بل اسُتغل من قبل الأنظمة المستبدة لترويع المواطنين من خلال القول بأن بقاء المستبدين في السلطة هو صمام الأمان لإستقرار البلد وإلا وقعوا فريسة لجماعات العنف ؛والتي كان بعضها ينطلق من فكرة دينية خاطئة قائمة علي تكفير المجتمعات،فالمستفيد من هذا المسار العنيف كان هم المستبدون القابعونعلي مقاليد البلاد،وهذه التجربة العنيفة التي وقعت فيها مجموعات كبيرة

٩٣- نفس المصدر السابق- ص١٠٣

من الشباب صحيح بها من أوجه الخلال والقصور والتهور الكثير ولكن أيضاً هذا الخلال وما نتج عنه من كوراث اجتماعية يتحمل وزرها الحكام المستبدون والطغاة الذين أغلقوا مسارات الفعل التغييري السلمي وانتهكوا حرمات الإنسان العربي بكافة أنواعها الدينية والإقتصادية والسياسية....إلخ.

ولكن الشعوب العربية لم تهدأ وظلت تبحث عن وسيلة فعالة تقوض بها أركان الإستبداد والقهر؛فإذا كانت الإنقلابات العسكرية لم تنتج نظاماً حراً ويمقراطياً يحترم كرامة وحرية الشعوب،وإن كان مسار التغيير العنيف قد تعثر هو الأخر وأصبح ضرره أكبر من نفعه علي الشعوب وحريتها؛وإن كان مسار الإنتخابات عبر الصناديق لايعبر عن إدارة الشعب الحقيقة إذن أمام هذا الإنسداد التاريخي غير المسبوق ما هو المخرج؟

فكان المسار البديل الذى سنفصله في الأسطر التالية .

ج - المسار الثالث : حرب اللاعنف

يُخطىء من يظن أن رحلة الشعوب العربية نحو شاطيء الحرية والكرامة والمساواة بدأت مع نسمات ثورات الربيع العربي المعاصرة ،فكما أسلفنا قد كانت رحلة بها الألم والأمل؛وتجريب البدائل والكتاب عن ما يسمي بالوسيلة الذهبية* القادرة تقويض الإستبداد مع الحفاظ علي سلامة واستقرار المجتمع. وهذه الرحلة تكثفت خطواتها في هذه الفترة الزمنية المعاصرة ،فمن خلال جهود الشباب العربي وعبر القراءة والكتاب والتجريب ؛والتعلم عن طريق نظرية الخطأ والصواب...حيث اكتشف الثوار الجدد أن مواجهة المستبد دون حشد الجماهير هو ضرب من الخيال القاتل؛وأن التصدي للظلم دون ظهير جماهيري حاشد وهادر خطأ استراتيجي،وأن وحدة الشعب بكل طوائفه وفئاته ضد الإستبداد شرط لازم للنجاح في هذه المعركة ،وأن إستخدام العنف والتخريب هو المسار المفضل للطغاة فهم الأقدر علي استخدم القوة والعنف فلديهم السلطة التنفيذية الغاشمة والقوات الأمنية المدربة ووسائل التجسس الفاعلة ،والشعوب لايمكن لها أن تنخرط بأعداد مليونية في عمل مسلح ضد السلطة ،وبالتالي يظل القسم الأكبر من الجماهير خارج نطاق المشاركة في العمل الثوري وهذا يخدم المستبد بشكل كبير ،فمن خلاله يتم تشويه الثوار والمناضلين علي أنهم شرزمة قليلة ولا تمثل جموع الشعب الصامت.! فالشباب وعوا هذا الدروس واختاورا ميداناً جديداً لايحسن المستبدون اللعب فيه والسيطرة عليه وكان شعارهم الإستراتيجي " لا تعرض نقاط ضعفك إلى نقاط قوة الخصم"،وفلسفتهم في هذا المسار أنه ينبغي للثوار أن يختاروا هم الملعب الذي سوف يخوضون فيه المعركة وليس المستبد، فأنتجوا مسار جديداً أطلقوا عليه ما يعرف بحرب اللاعنف والذى تعرفه أكاديمية التغيير بأنه:

"شن الصراع الحاسم علي الخصوم المعاندين من خلال التحكم المقصود والمخطط في أدوات القوة السياسية لتحطيم إرادة الخصم بإستخدام أسلحة لاعنيفة قوية التأثير"[٩٤]

وهذا الخيار اتاح للعديد من الجماهير المشاركة في صنع التغيير كلٌ حسب طاقته وقدراته ؛فالكل أصبح قادراً علي أن يعبرعن رأيه المعارض ،وأن يكون جنداً في معركة التحرر من الإستبداد والقهر، وهذا فرض واقعاً جديداً وتحدياً قاسياً علي المستبدين ،ومن خلال دراستي لفلسفة واستراتيجية ووسائل حرب اللاعنف في الساحة العربية وجدت التالي:

- أن فلسفة حرب اللاعنف قائمة علي الفرضية التالية : أن الحاكم والمستبد يستمد قوته وطاقته وعنفوانه من تعاون الجماهير معه والخضوع له، وهذا الخضوع قد يتمثل في الذهاب للعمل وانتظام دولاب عمل الدولة ،فالجندي يذهب إلى مخفره.. والعامل إلى مصنعه.. والطبيب إلىعيادته.. وكل هذه الممارسات اليومية تؤدي إلى إطلاله عمرالمستبد سياسياً ؛بالتالي الواجب في مسار حرب اللاعنف هو قطع هذا التعاون عن المستبد حتي يُصاب بالمجاعة السياسية وتقوض سلطتة قوته، وهذا بطبيعة الحال قد يؤدي إلى خسائر للمجتمع ولكنها أخف طبعاً من استخدام مسار العنف.

- الشباب العربي قد سجل إبداعاً كبيراً من خلال نقل أدبيات هذا المسار للساحة العربية ،فحرب اللاعنف كاستراتيجية للتغيير السلمي مستخدمة من زمن بعيد في الساحة السياسية العالمية بداية من تجربة القائد الهندي – غاندي-والذي استخدم أسلوب العصيان المدني لمقاومة المحتل البريطاني وحصل من خلاله علي استقلال الهند في عام ١٩٤٧ – مروراً "بتجربة شعوب أوربا الشرقية التي استخدمت نفس الأسلوب في مقاومة الإستبداد الشيوعي بداية من العام ١٩٥٣ إلى ١٩٩٠ ،واسُتخدمت أيضاً في تقويض الإستبداد في قارة أمريكا الجنوبية – دولة شيلي ١٩٨٧"[٩٥].

وقد قامت كتيبة من الشباب العربي بهذا الجهد الأكاديمي الكبير وسخرت نفسها وسهرت الليالى والشهور والسنوات بداية من العام ٢٠٠٤ وهي تحاول نقل هذه التجارب العالمية لفضاء الساحة الشبابية العربية وتدريب الشباب العربي علي أسس حرب اللاعنف وفلسفة عمله وأسلوب استخدمه، وذلك وفق ثقافة المنطقة العربية والإسلامية؛ ومن أهم هذه الجهود والكتائبة المؤسسة لهذا الجهد في الوطن العربي (أكاديمية التغيير) وسوف أُفصل الحديث عنها في محور المشاريع الجديدة التي أنتجها الشباب العربي استعداداً لثورات الربيع العربي.

٩٤- نفس المصدر السابق- ص ٥١
٩٥- نفس المصدر السابق

في نهاية هذه النقطة نؤكد أن الشباب العربي الثائر قد ساهم بجهد مقدر في إخراج المجتمعات العربية من مرض الثنائية والذي كان يتمثل في الدخول في عملية إنتخابية مزورة لا تنتج هيئات دستورية حقيقة، أو إستخدام العنف الذي يقوض المجتمع ذاته قبل أن يهدم المستبدين والسلطة الغاشمة،فعبر مسار حرب اللاعنف تمكنت شعوب بلدان الربيع العربي أن تنافح القهر والظلم والإستبداد بسلاح فعّال ومُؤثر وقادر علي تقويض الأنظمة المستبدة؛ وتحيدعنف السلطة ،وقد تجلت استراتيجية حرب اللاعنف بشكل خاص في ثورتي تونس ومصر بشكل خاص.

هـ- تدبيب السهم

"ماقيمة السهم إن لم يكن له هدف؛وماقيمة الهدف إذاكان رأس السهم غير مدبب؟"[٩٦]

في الفترة الزمنية السابقة علي ثورات الربيع العربي منذ العام ٢٠٠٣ خصوصاً في الحالة المصرية بدأت الحركات الثورية الشابة مثل حركة كفاية المصرية ،وحركة ٦ أبريل وغيرها من الحركات التغييرية المختلفة.. تحدد هدفها بشكل واضح ومحدد وصارخ وهو إسقاط الإستبداد ومقاومة المستبد، فشعار حركة كفاية الخالد هو " لا للتوريث لا للتمديد" ويقصد بها إنهاء فترة حكم الرئيس المخلوع حسني مبارك، وهكذا كان جهد ورؤية حركة ٦ أبريل..إسقاط المستبد، وهذا التكثيف والوضوح والذي يمثل صناعة سهم مدبب الرأس محدد الهدف والوجهة، كان عاملاً مساعداً في توحيد الجهود الشعبية فيما بعد نحو تغيير النظام وإسقاط فرضية إصلاحه وإعادة ترميمه وتجملية عبر مسار الإنتخابات التجميلية التي برعت الأنظمة العربية في تزويرها. وكان هذا الوضوح في الهدف مستفزاً للعديد من الحركاتالإسلامية الإصلاحية التي كانت تراهن علي عامل الزمن إمابموت الطاغية بحكم العمر البيولوجي وإنتظار قضاء الله وقدره؛أو المراهنة علي الدخول في عملية ديمقراطية ربما تعبر عن إرادة الشعوب ،أو ظهور بطل ملخص للشعوب العربية يحسم لها المعركة مع النظام الغاشم"[٩٧]

فكان هذا التحديد فاتحة خير قدمها الشباب للمجتمع العربي مصوبين سهام الفعل الثوري نحو علة العلل وآفة الأفات وأُس الفساد هو **الاستبداد وليس غيره** ، فما المشاكل المزمنة في قطاع التعليم والصحة والإقتصاد ،وما إنتشار الفساد وانتهاك حقوق الإنسان إلا صدى فساد رأس السلطة، فكما قيل "إن فساد السمكة يبدأ من رأسها"، وكذلك التغيير الجذري يبدأ من إزالة رأس النظام الساهر علي نشر الفساد ،وهذا الوضوح في الهدف -إسقاط النظام – تجلي في مسيرة هذه الحركات الثورية وهي في مرحلة بناء القدرة وكسب الأنصار عبر الإحتجاجات الكثيرة التي شهدتها بلدان الربيع العربي قبل الثورة خصوصاً مصر وتونس، وتكثفت بعد ذلك في هتافات

٩٦- جاسم سلطان- التفكير الإستراتيجي –مكتبة أم القري –المنصورة-الطبعة الأولي ٢٠٠٦ ص ١٥١
٩٧- عبد الله النفيسي وأخرين – الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية –مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٨٩- الطبعة الأولي ص٣٧٥

الميادين وزائير الجماهير الغفيرة **"الشعب يريد اسقاط النظام"..** وحتي بعد إندلاع الثورات؛حاولت الأنظمة عمل تعديلات شكلية تُبقي طبيعة النظام كما هي مع تغيير الأشخاص ،لكن رفض الثوار في الساحات هذه الحلول الترقيعية،لأن الهدف صار واضحاً وأصبح السهم مدبباً وقادراً علي اصطياد الفريسة علي وقع نشيد الثورة العربية الخالد (**مش هنمشي هو يمشي**)...

وكانت فوائد فكرة السهم المدبب علي ساحة الفعل التغييري عظمية وفق التالي:

١ – رفعت سقف المطالب الشعبية ونقلته من مرحلة إستجداء الحقوق إلى مرحلة انتزاع الحقوق.

٢ – تولد عن هذا الوضوح في الهدف إشتراك قطاعات جماهيرية كبيرة تطالب بالتغيير في كافة مؤسسات الدولة مثل أطباء من أجل التغيير ومحامين من أجل التغيير ووصلت إلى مرحلة أطفال من أجل التغيير كما في الحالة المصرية.

٣ – جذبت هذه الدعوة – اسقاط النظام المستبد – قطاعات شابة كانت عازفة عن العمل العام الذي لايؤدي نفعاً في نظرها مثل المشاركة في الانتخابات؛ فوجود هدف كبير يمكن خدمته بعمل سلمي لا عنيف أمر محفز للعديد من الشباب.

٤- ولدت دعوة إسقاط النظام رموز جماهيرية تُعرف بهذا التوجة وأصبح لهم أنصار في الشارع يسمعون لهم ويستجيبون لنداءهم.

في نهاية المطاف وضوح الهدف ومعرفة الوسيلة وسلمية الفعل كانت أفكار حافزة ومؤثرة في العقل والوجدان والفعل العربي الذي أنتج هذه الثورات الرائعة.

مجال التصويب

تركيز الثوار علي المشاكل الحقيقة القائمة في الوطن- الفقر والبطالة وامتهان الكرامة..والمشاكل الرئيسية التي يعاني منها الناس كل يوم وليلة جعل لهم شعبية وأوجد لهم تعاطفاً جماهيراً كبيراً وغير مسبوق مع الحركات الثورية الشبابية المناضلة ،وهذا يعد تقدم كبير للحركات الشبابية.

أذكر أنني عندما كنت في المرحلة الجامعية في العام ١٩٩٣ أميناً عاماً مساعداً لإتحاد طلاب كلية اللآداب جامعة القاهرة ،وكان اتحاد الطلاب في هذه الفترة معارضاً لنظام مبارك المستبد، كان الإتحاد ينظم العديد من المظاهرات شبه اليومية في داخل الحرم الجامعي، ولكن للأمانة وللتاريخ في فترة وجودي في موقعي في اتحاد

الطلاب لم نتظاهر يوماً ما من أجل البطالة أو الفقر والجوع في مصر،وإنما جُلّ التظاهرات كانت عن قضايا خارج التراب الوطني مثل قضية فلسطين والشيشان والبوسنة والهرسك وهذا مهم جداً ومطلوب، ولكن كان من المفترض أن لا نبتعد كثيراًعن قضايا المواطن البسيط والعامل الفقير والإنسان المُمتهن الذي لايجد القوت والعلاج والعمل...وأهم من ذلك تمتهن كرامته.!

وهذا ما فعله شباب الربيع العربي وعالجوا به الخلل الذي كان يمنع المدد والمدّ الثوري من الإنتشار بين الجماهير في داخل الأوطان؛ وذلكعندما انطلقوا من قضايا الداخل نحو قضايا الخارج وليس العكس..فكسبوا تعاطف الجماهير في الداخل والخارج...وأصاب السهم المدبب موضع الهدف.!

الثالث: تدشن المشاريع الفارقة

كما فصلنا في الصفحات السابقة بأن ربيع الثورات العربية لم تكن فعلاً عابراً نشأ في الظرف واللحظة كما يبدو للعديد من المراقبين والإعلاميين؛ولكن من واقع التجربة الشخصية والمتابعة اللاصقة للمشهد التغييري في العديد من بلدان دول الربيع العربي وخاصةً الحالة المصرية (بحكم الجنسية وحالة الدراسة)اتضح لي أن ربيع الثورات العربية مرّ بعد مراحل متعددة في مسار بناء القدرة علي اكتساب الخبرات النضالية والأفكار الثورية وامتلاك الأدوات القادرة علي التواصل مع العالم ومع الجماهير فمرحلة بناء القدرة (أقصد به توفر أداوت الفعل الثوري والتدريب عليها قبل إنطلاق الثورة في الميادين)؛وهذا جزء يحتاج إلى رصد بشكل أكثر تفصيلاً ودراسة وتحليلاً في المجال العسكري يقولون "العرق في التدريب يُوفر الدم في المعركة"؛أيضاً الإعداد للفعل الثوري يختصر الوقت ويُعجل بالإنتصار.

وبناء القدرة هذا ينقسم إلى عدة مسارات واتجاهات ،سوف أتناول ثلاثة من نماذج بناء القدرة كان لها الأثر البالغ في إنتصار الثورة المصرية خصوصاً والثورات العربية بشكل عام ،وأقصد بالنماذج مجموعة من المشاريع التي تخدم الفعل التغييري قبل الثورة وأثناءها وبعدها،وهذه المشاريع التي أطلقت عليها "الفارقة" وأقصد بها أنها بجهودها مثلت إضافة نوعية للعمل التغييري وأحدثت تغييراً حقيقاً علي الأرض ،وساهمت بجهد واضح في خدمة الثورة والثوار والتواصل مع الجماهير.

وبعض هذه المشاريع تخصص في نشر ثقافة التغيير والعصيان المدني وتنظيم المظاهرات ،وبعضها تخصص في التواصل الإعلامي وإيصال صوت الثورة والثوار للرأي العام الداخلي والخارجي ،وبعضها تخصص في توفير بيئة ثورية جامعة للشباب تتجاوز الأيديولوجيا – إذابة الأيديولوجيا.

ومن خلال الصفحات القادمة سوف نتعرف علي طبيعة هذه المشاريع الثلاث الفارقة والمؤثرة والتي أطلقها الشباب استعداداً للحظة الفارقة وقت المعركة نزول الجماهير للشارع ؛وقد اخترت هذه المشاريع الثلاث بهذا الشكل دون غيرها ذلك لأن مشروع أكاديمية التغيير اهتم بالجانب الأكاديمي ومعالجة الأفكار،وشبكة رصد تمثل وكالة أنباء الثورة في التواصل الجماهيري،وصفحة كلنا خالد سعيد تمثل الفعل الحاشد وصاعق التفجير للثورة المصرية؛وسنبدأ في الإستعراض للمشاريع وفق الترتيب التالي:

١ – أكاديمية التغيير.

٢ – شبكة رصد الإعلامية.

٣- صفحة كلنا خالد سعيد

١- فيلسوف الثورة : أكاديمية التغيير[٩٨]

الفكر يسبق العمل والعقل سيد الجوراح،وملاحم التغيير تبدأ في العقول قبل الميادين،وكل ثورة لها فيلسوفها الملهم ومنظرها المُبشر بها،وثورات الربيع العربي ليس بدعاً من الثورات التي وقعت في مشارق الأرض ومغاربها،وإنما هي لؤلؤة منيرة في عقد نضالات الإنسانية نحو الحرية والكرامة والمساواة،فهي ثورة لها فلسفة ولغة ومنطق ورموز ورجال وشهداء وأبطال،أما فلسفة الثورات العربية الراهنة يمكننا أن نطلع عليها من خلال التعرف علي مشروع أكاديمية التغيير؛والسؤال المنطقي هنا: لماذا تم التركيز هنا علي أكاديمية التغيير دون غيرها؟

هذا سؤال بالغ الأهمية والإجابة تتلخص في التالي:

الثورات العربية الأخيرة كان العنصر القائد فيها والمفجرالحقيقي لها هو الشباب ،والذي ظل إلى فترة وجيزة يُنظر إليه علي في العالم العربي علي أنه شباب ضائع الهدف،غير محدد الغاية ،هائم علي وجه،ووفاقد لهويته وإنتمائه،ولكن هذه الصورة النمطية تحطمت عندما شاهد العالم أجمع حيوية وقدرة هذا الشباب علي التصدي للطغاة والمستبدين وللأنظمة القمعية العاتية في ثورات الربيع العربي،وحاول البعض رغم هذا المشهد البطولي المهلم التقليل من جهد الشباب عبر نسب فكرة الثورة والتغيير السلمي إلى خطط وعمل

٩٨- http://aoc.fm/site/

المؤسسات الغربية والأمريكية ليجعلوا هذا الشباب مجرد أداة في يد قوى أخرى تحركهم وتفكر لهم ،فكان اختياري لمشروع (أكاديمية التغيير)لأنها مشروع مؤسسوه من الشباب العربي نظروا للثورات العربية منذ العام ٢٠٠٦ بجهد عربي خالص منفتح علي تجارب الدول الأخرى،ولكنه منتمي لعروبته ووطنه العربي الكبير كمحاولة لتفكيك هذه الدعوىالباطلة بأن الثورات العربية وسلميتها أمرغريب علي البيئة العربية

الميلاد الواعد

خرجت أكاديمية التغيير للوجود كمؤسسة علمية بحثية عربية في العام ٢٠٠٦ ،تهتم بتزويد العقل العربي بأدوات الفعل الاجتماعي والسياسي ليكون قادراً على ممارسة التغيير والتحول الحضاري. تأسست أولاً في لندن في مارس عام ٢٠٠٦؛ ثم تأسس فرع الدوحة في ٦ سبتمبر ٢٠٠٩؛ ثم تأسس فرع فيينا في ١ مايو ٢٠١٠علي يد فريق مبدع من أبناء الوطن العربي مكون من ثلاث أفراد هم(الدكتورهشام مرسي،المهندس وائل عادل،الأستاذأحمد عبد الحكيم)وهم يُعرفون أنفسهم وفق التالي:

" نحن مجموعة من الشباب الباحث؛جمع في دراسته بين العلوم التطبيقية والإنسانية؛محاولاً الإجابة على الكثير من الأسئلة العلمية المطروحة على المجتمعات في طريق تقدمها؛نؤمن أن المجتمعات لا يتغير عالم أشيائها إلا إذا تغير عالم أفكارها،فبدأنا العمل الكتابي تمهيداً لزلزال العقول وهو ما نطلق عليه ثورة العقول"

عن كثب

نظراً لإهتمامي بملف التغيير السياسي في العالم العربي سعياً لمعرفة كل جديد في هذا الإطار من كتابات ودراسات لمعرفة كيفية الخلاص من مستبد،فالإستبداد بات واضحاً ومعروفاً،والقمع أصبح ممارساً وملحوظاً، وبالتالي ليس هناك إبداع كبير يمكن أن يدركه المرء في توصيف الداء العربي خصوصاً قبل ثورات الربيع العربي وإنما كان الإبداع هو في الإجابة عن سؤال كيف نتخلص من الإستبداد والقهر والقمع؟ فجاء تعرفي علي مشروع أكاديمية التغيير في هذا الإطارمن خلال الإنترنت وما تنشره من مقالات وكتب ومحاضرات وأفلام عن طرق التغيير السلمي علي موقعها الإلكتروني؛ ثم ما توفر في عالم المكتبات من كتب صدرت عنها وخاصة كتاب – حرب اللاعنف ..الخيار الثالث

لكني لم أقف عند هذا الحد في التعرف علي هذا المشروع الجديد؛"فسعيت للقاء بهم وعمل عديد المقابلات معهم في القاهرة والدوحة"[٩٩]لإستجلاء حقيقة التجربة والوقوف عليها ومعرفة مدى مساهمة الأكاديمية في نشر ثقافة التغيير السلمي في المنطقة العربية قبل وبعد الثورات العربية ،فمن خلال القراءة لهم عبرالإنترنت والكتب والمقابلات المباشرة مع فريق العمل خرجت بالتالي عن هذا المشروع المتميز:

١- هو المشروع العربي الأول في المنطقة العربية الذي وفرأدبيات أكاديمية رصينة تؤصل لفلسفة التغيير اللاعنف واستراتيجيات العصيان المدني ،فسؤال الفريق المؤسس كما بدا لي من المقابلات هو "محاولة تغيير نمط التفكير الثنائي المعيق للفعل في المنطقة العربية". فقصة التغيير في العالم خصوصاً التغيير السياسي قبل الثورة كانت تدور بين رحى مدرسة الصبر ومدرسة العنف ،فكان سؤال الفريق المؤسس للأكاديمية:هل هناك من مسار ثالث يمكن أن يؤتي أكله ويحدث تغييراً حقيقاً يحقق آمال الشباب العربي؟،ومن خلال الكتاب والقراءة والتواصل مع الثقافات الأخرى وجدوا استراتيجية قديمة جديدة ،قديمة من حيث النشأة وجديدة من حيث التطويروالبناء عليها ،وقد أُستخدمت في قارات العالم الخمس ونجحت في تقويض عروش وممالك الطغاة والمستبدين وعرفوا هذا المسار في أدبياتهم بمسار حرب اللاعنف.

٢- أثرت أكاديمية التغيير المكتبة العربية الفقيرة في هذا المسار-التغيير اللاعنف- بقرابة ستة كتب رصينة تؤصل لفلسفة واستراتيجيات ووسائل حرب اللاعنف.

٣ - لم تكتف الأكاديمية بالكتابة العلمية فقط وإنما تقدمت للأمام خطوة أكبر وهي تدريب الكوادرالعربية الشابة علي هذا المسار عبر التعليم عن بعد من خلال شبكة الإنترنت؛ ثم في مرحلة لاحقة نزلت للتدريب في الميدان ،خصوصاً في مصر وبعض البلدان العربية ،ومن خلال الكتاب والدراسة وجدت مثلاً أن حركة كفاية المصرية تلقت تدريباً علي يد خبراء أكاديمية التغيير تحديداً علي يد المدرب (وائل عادل- أحد مؤسسي الأكاديمية)؛وأيضاً من خلال متابعتي لتأثير الأكاديمية في الشباب العربي الثائر وجدت أن(عبد الرحمن منصور-أحد مؤسسي صفحة كلنا خالد سعيد- أول الصفحات التي دعت لتظاهرات ٢٥ يناير) قد استقي كثيراً من أفكاره من خلال أكاديمية التغيير.

٩٩- مقابلة شخصية مع وائل عادل المسئول الإعلامي بالأكاديمية الدوحة ٢٠٠٩

فالشاهد أن الأكاديمية كانت حاضرة في المشهد الثوري العربي من خلال مساعدة الثوار في بناء قدرتهم الفكرية والإجرائية المؤهلة للفعل الثوري ،وامتد أثر الأكاديمية المعرفي في طول البلدان العربية من المحيط الأطلنطي غرباً إلى ضفاف الخليج شرقاً ،ولمعرفة هذا الأمر بشكل دقيق سوف أعرض هذه الإحصائيات الخاصة بتفاعل الشباب العربي مع أنشطة الأكاديمية المختلفة بداية من العام ٢٠٠٩ حتي تاريخ كتابة هذا الكتاب وذلك وفق مقابلتي مع المسؤل الإعلامي للأكاديمية:

- عدد المشاهدات لقناة الأكاديمية علي يوتيوب بلغ قرابة **١٦٦٠٠٠ مشاهدة**
- عدد الذين زروا موقع الأكاديمية علي شبكة الإنترنت بلغ قرابة**١٥٠٠٠ زيارة**
-عدد الشباب الذين تلقوا تدريب(أون لاين)بمختلف درجاته الدروس الحرة والدبلومات أكثر من **١٠٠٠متدرب**
- عدد المستفيدين بشكل مباشر من الخدمات الأكاديمية أكثر من **٣٠٠٠ مشترك**- مثل المكتبة.
- عدد المتابعين لصفحة الأكاديمية علي الفيس بوك أكثر من **١٤٠٠٠ متابع.**
- من أهم الصفحات العربية الثورية التي تنقل عن الأكاديمية :

* خالد سعيد المصرية.
* الثورة السورية ضد بشار الأسد.
* حركة ٦ أبريل.
* أيام الحرية.

٤ - أهداف هذا المشروع الفكري الثوري تعد متقدمة جداًخاصةً وأنها كانت تعمل تحت خط النار في ظل سطوة الأنظمة المستبدة ؛وكانت تتحركوهي تحملروحها علي كفها-كما يقولون- ؛ويمكن التعرف علي أهداف هذا المشروع كما أعلنتها الأكاديمية نفسها وفق التالي:

أ - نشر ثقافة التغيير ومنهجيات التفكير المتطورة واستراتيجيات التحول الحضاري.

ب - توفير الأدوات العلمية المساهمة في إحداث ثورات حضارية في عالم الفعل الاجتماعي والسياسي.

ج - تدريب كوادر مؤسسات المجتمع المدني والأحزاب والأفراد على استراتيجيات ووسائل التغيير.

د - تقديم الإستشارات للحكومات والمؤسسات والأحزاب والأفراد التي تسعى لتنمية مجتمعاتها.

٣- وكالة أنباء الثورة : شبكة رصد.

كما كان لكل ثورة شاعر ينطق بأمالها وطموحاتها،جاء مشروع شبكة رصد الإخبارية لتكون وكالة أنباء الثورة المصرية بداية من مرحلة الإعداد وإنتهاءاً بتنحي رأس النظام الرئيس المخلوع محمد حسني مبارك ، وكما المعروففالمعركة بين الثوار وفريق الثورة والمستبدين لها ميادين شتى، ومن أهمها سلاح الإعلام ،وقد احتكرت الأنظمة المستبدة في بلدان الربيع العربي وغيرها الفضاء الإعلامي لفترة زمنية كبيرة بغية تغيب الوعي العام العربي وتوجية الرأي العام في اتجاه السكون والرضا بالواقع ،ولكن مع تبشاير ثورات الربيع العربي وخاصةً في الحالة المصرية كان الشباب قد تعلموا الدرس جيداً ،والمتمثل في ضرورة وجود منصة إعلامية تعبر عن الثورة وتنقل الخبر والصورة بدرجة عالية من المصداقية وتكون لهذه الأداة الإعلامية القدرة علي الإستمرار في أصعب الظروف والأحوال حتي يظل الشارع والعالم متابع للفعل الثوري ومتواصلاً معه.. فجاءت فكرة إنشاء شبكة رصد الإخبارية لتقوم بهذا الدور البطولي.

من أين جاءت الفكرة

نشأة شبكة رصد الإعلامية علي فضاء الإنترنت متزامنة مع إنتخابات البرلمان المصري في العام ٢٠١٠ [١٠٠]كمحاولة من الشباب المصري لتويثق الإنتهاكات الحكومية التي تحصل في الإنتخابات من تزوير واعتقالات للمواطنين والمرشحين ؛وقد حققوا في ذلك نجاحاً كبيراً في هذه المهمة ،ومع تطور الشأن النضالى المصري ووجود دعوات للتظاهر يوم ٢٥ يناير بدعوى من صفحة كلنا خالد سعيد ؛حصل لقاء هام بين مؤسسي شبكة رصد الإخبارية ومؤسسي شبكة كلنا خالد سعيد وبموجب هذا اللقاء أصبحت شبكة رصد هي لسان حال المظاهرات التي صارت ثورة بعد ذلك ،فقبل التظاهرات نشرت صفحة كلنا خالد سعيد خبراُ هو أن شبكة رصد الإخبارية ستكون هي الجهة المعتمدة لدي الصفحة لنشر أخبار المتظاهرين والتظاهرات في أنحاء الجمهورية.

دقت ساعة العمل

مع توافد الجماهير في الشوراع ونزول الآلاف منهم يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ في مصر دقت ساعة العمل الجاد في شبكة رصد الإخبارية وبدأت في نشر الأخبار والأحداث علي موقعها علي فيس بوك وارتفع عندها عدد الأعضاء في الصفحة حتي بلغ بعد أحداث يوم ٢٥ يناير قرابة **٣٠٠,٠٠٠عضو** متابع للصفحة ،وهكذا

١٠٠- مجموعة مؤلفين – يوميات الثورة المصرية – الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت -٢٠١١ – الطبعة الأولي ص ١٢٩

ظلت شبكة رصد وكالة أنباء الثورة المصرية تنقل الخبر والصور لحظة بلحظة عبر فريق متطوع من الشباب من وسط الأحداث مما أعطي مصداقية كبيرة للشبكة وسط وكالاتالأنباء والمحطات الفضائية.[١٠١]

علي خط النار :

كانت شبكة رصد هي أول من نشر فيديوهات لأحداث الثورة في السويس حيث اعتمدت في التغطية المصورة على الإيميل والمراسلين الميدانيين، وبذلك تكون شبكة رصد قد اخترقت حاجز عدم التغطية من السويس وأصبحت "رصد" الجهة الوحيدة في نقل الخبر من هناك، وهكذا أصبحت رصد مصدرا لـ قنوات "الجزيرة" وغيرها من القنوات الفضائية ووكالات الأنباء، وكانت "الجزيرة" وقتها تكتب الخبر نقلاً عن شبكة رصد الإلكترونية.

الفريق المؤسس للشبكة هم مجموعة من الشباب المصريين وكان من أبرزهم الأسماء التالية :

عمرو سلامة القزاز وأنس حسن ومحمود علاء ومصطفى علاء وعمرو فراج وأسامه طلبه ومصطفى شحاته وخالد نور الدين وسامحي مصطفى وخالد متبولى وأحمد عبد الوهاب ومحمد مصطفى ومحمد شحاته وأحمد أمين وحفصة أحمد وعبد القادر الشيشينى.

وقد قمت بعمل مقابلة مع الشاب أنس حسن[١٠٢]-أحد المؤسسين- محاولة مني للوقوف علي تفاصيل أكثر عن طبيعة عمل الشبكة ودورها الرائد في الثورة المصرية ،ومعرفة خطة الفريق المؤسس في التعامل مع المشروع – شبكة رصد – بعد الثورة ،فوجدت روحاً خلاقة عند هذه المجموعة من الشباب؛ حيث أنهم اتخذوا قراراً بتوفير كامل الدعم الإعلامي والخبرة الميدانية التي اكتسبوها من تجربتهم إلى الثوار في ثورة ليبيا واليمن وسوريا ،وكما أخبرني أنس أنهم فعلاً قاموا بتدريب مجموعات من الشباب الليبي والسوري واليمني في القاهرة وغيرها من العواصم العربية ؛ووضعوا تحت تصرفهم كامل خبراتهم التي اكتسبوها في الساحة المصرية ،فنجد الأن شبكة شام في سوريا وغيرها هي تجربة قريبة من مشروع شبكة رصد المصرية.

قانون الجاهزية [١٠٣]

الشاهد في هذا المشروع أن المشاريع الفارقة التي أطلاقها الشباب تمهيداً للثورة والتي ربما فقط كان حلماً في عقول هؤلاء الشباب جعلهم يوفروا له مقومات التحقق وفرصة الخروج إلى الوجود ،فالأحداث التاريخية كما هو

١٠١- نفس المصدر السابق
١٠٢- مقابلة شخصية مع أنس حسن أحد مؤسسي شبكة رصد الدوحة ٢٠١١
١٠٣- جاسم سلطان: قوانين النهضة القواعد الإستراتيجية- المنصورة- أم القرى -٢٠٠٥

معلوم تعمل وفق سنن كونية لا تحابي أحداً وإن كان نبياً مرسلاً ،ومن أهم هذه السنن قانون الفرصة وقانون الجاهزية؛ بمعنى أنه قد يأتي حدث تاريخي وموقف حاسم للتغيير وتتحرك الجماهير في لحظة تاريخية ما وهذه تعد فرصة متميزة للثورة والثوار،ولكن عدم توفر الجاهزية من وسائل إعلام تنقل الخبر والصورة وفريق من الثوار يطور الفعل الثوري ،ربما يجهض الفرصة ويحولها من نقطة قوة إلى نقطة ضعف ،ولكن من توفيق الله لجهود الشباب تم تحويل فرصة الثورات في العالم العربي من حلم إلى حقيقة مشرفة لكل العرب والمسلمين عبر الإستفادة من قانون الفرصة والإعداد للعمل بقانون الجاهزية؛وقد جاءت منن الله الكبيرة بعد ذلك علي الثورة والثوار.

وأذكر في هذا المقام عبارة رصينة للأستاذ الدكتور/ سيف الدين عبد الفتاح(أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة)عندما إلتقيت به أثناء الثورة المصرية حيث كان أستاذاً زائراً في مؤسسة قطر التعليمية وتحاورت معه في شأن الثورة المصرية وتعجبت من النجاحات المذهلة التي حققها الشباب في وقت يسير ؛فقال.**"المنن لا تأتي إلا بعد الأخذ بالسنن"**؛وهذا ما لمسته من خلال متابعة لجهود الشباب الثوار في بلدان الربيع العربي بداية من تأسيس الحلم وتوفير فرص عيشه وإعداد المسرح لقدومه ليضرب بأقدام ثابتة وسط الميادين العربية معلناً إفتتاح عصر جديد لأفاق الحرية والعدالة والمساواة.

٤- صفحة كلنا خالد سعيد : الألم والأمل

تأتي صفحة كلنا خالد سعيد علي فيس بوك لتؤكد الفكرة التي ذهبنا إليها في الكتاب بأن إمتلاك الشباب لوسائل الإتصال والتواصل الجماهيري أحدث فارقاً كبيراً بحد ذاته في الفعل الثوري، فمابلك لو أضفنا إلى هذا الإمتلاك تكوين مشاريع إعلامية إنطلاقاً من هذا الفضاء الإعلامي للتواصل مع جموع الجماهير ونواة الثوار خاصةالشباب ،فمشروع صفحة كلنا خالد سعيد علي فضاء فيس بوك تعد المجموعة الأولى التي تتبنى الدعوة إلى مظاهرات ٢٥ يناير التي تطورت إلى ثورة هزت أرجاء المعمورة.

فماهي صفحة كلنا خالد سعيد؟ كيف نشأت وكيف تطورت؟ وكيف قادت أنشطتها؟ من هم مديروها ومن محرروها؟ وكيف أصبحت هي المجموعة المتصدرة لدعوة التظاهر في ٢٥ يناير؟ وما دورها خلال ١٨ يوماً من الثورة في الشارع؟

سنحاول الإجابة علي هذه الأسئلة المركزية التي من خلالها سنكتشف مدى أهمية هذا المشروع الفارق في تاريخ ثورة ٢٥ يناير..

قصة البداية

من هو خالد سعيد؟؛سننقل قصة الشاب خالد سعيد وأحداثها كما جائت علي لسان الدكتورعمرومجدي في كتابه"يوميات الثورة المصرية يناير ٢٠١١"[١٠٤] نظراً لمعرفته المباشرة بأحد مؤسسي الصفحة وهو الشاب (عبد الرحمن منصور) حيث يقول : كانت ليلة السادس من يونيو عام ٢٠١٠ في عروس المتوسط الإسكندرية، كان مجموعة من الشباب يجلسون في مقهى إنترنت في شارع عادي، مثل آلوف شوارع أبناء الطبقة المتوسطة..هنا تراهم يلعبون أو يدردشون..يستخدمون فيس بوك، صفحة جديدة قد تسفر عن حياة جديدة...لا أحد يدري.. لا نعرف بالضبط ما الذي كان الشاب العشريني "خالد سعيد" يفعله في المقهى مع أصدقائه في تلك اللحظة، لكن ما صرنا نعرفه جيداً أن اثنين من مخبري قسم سيدي جابر بالإسكندرية لسببٍ أو لآخر "كبسوا" على المقهى.

كل ما سبق حتى الآن عادي جداً، يتكرر يومياً عشرات المرات على أرض مصر، لكن ما سيحدث تباعاً هو عنصر الجِدة في المشهد:المخبر يطلب من خالد سعيد إبراز بطاقته الشخصية، خالد سعيد يصرخ فيه رافضاً ذلك؛بوسعنا أن نتخيل حواراً بين شاب متعلم ينتمي لبقايا الطبقة المتوسطة بأحلامها المتعثرة، وطموحاتها في حياة كريمة لايكدرها القلق، وبين مخبر "يعرف عمله جيداً".! الشاب يرفض إبراز بطاقته لأنه لم يرتكب جرماً، والمخبر يعتبر ذلك إهانة لفخامته، يحتدم المشهد..يتطور إلى عراك،ينهال المخبران ضرباً على خالد سعيد وسحلاً له أمام أعين القلة المتواجدة في المكان... يستخدامان الركل والصفع وخبط الرأس في الحائط ودرابزين السلالم..وحين يدركان أن "انتقامهما تجاوز الحد" وأنه قد فارق الحياة، يسحبانه إلى سيارة الشرطة، يضعان في فمه وحيازته لفائف من المخدرات ثم يعودان لقذفه في الشارع..تجيء سيارة الإسعاف لإستكمال المشهد.!. أهـ

ندرك من خلال قصة الشاب خالد سعيد متي امتهنت كرامة العربي علي نحو غير مسبوق فيأاشد العهود الإستبدادية ظلاماً؛ فقتل الشاب لم يكن دخل مخفر الشرطة وإنما جاء في وسط الشارع وعلي مرأي ومسمع من الناس.

وهذه الواقعة وغيرها من جرائم التعذيب أصبحت سياسية ممنهجة تمارسها وزارة الداخلية المصرية في تلك الفترة دون رقيب أو حسيب.!

١٠٤- مجموعة مؤلفين – يوميات الثورة المصرية – الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت -٢٠١١ – الطبعة الأولي ص ٣٩

ولكن حدث أمر غريب في هذه الواقعة المؤلمة حيث قرر مجموعة من الشباب إطلاق صفحة (كلنا خالد سعيد) بعد وفاة خالد سعيد بثلاثة أيام فقط، لتكون صرخة إحتجاج علي هذا العمل الإجرامي الذي مسّ وجدان الشباب ،وبدأت كرة الثلج تتدحرج وتكبر من خلال إصرار الصفحة علي التذكير بقضية هذا الشاب ثم الإنتقال إلى فضح أساليب وزراة الداخلية المصرية وفي إمتهان كرامة المصريين وجاءت أحداث مأساوية أخرى كانت الداخلية المصرية طرفاً فيها؛ فأعطت الصفحة زاخماً متجدداً وقضايا متواصلة استغلتها الصفحة لفضح جرائم وزارة الداخلية المصرية مثل: واقعة الشهيد أحمد شعبان والذي قُتل أيضاً في الإسكندرية علي يد قوات الشرطة المصرية في نفس القسم -دائرة القسم الذي قتل فيه الشاب خالد سعيد- وبدأت الصفحة في التواصل مع الشباب ؛وهذا التواصل نتج عنه توليد أفكار إحتجاجية تمارس علي الأرض بعد الإعداد لها علي صفحات العالم الإفتراضي وأصبح للصفحة القدرة علي حشد المئات والألاف للوقوف وافقات إحتجاجية وتنظيم مظاهرات ضد ممارسات وزارة الداخلية ضد المواطنين المصريين.

٢٥ يناير:عيد الشرطة

وتطورت الأمور حتي وصلنا إلى ذكرى يوم احتفالات الشرطة المصرية بعيدها الوطني يوم ٢٥ يناير حيث قرر مؤسسي الصفحة تحويل هذه المناسبة إلى فرصة للتظاهر والإحتجاج علي التعذيب والقتل الذي تمارسه وزارة الداخلية ،وكانت المفاجأة الكبرى هو قدرة الصفحة فعلاً علي حشد الشباب في الشارع وحدثت مظاهرات ٢٥ يناير؛ والتي فضتها الشرطة المصرية بالقوة ولكن سبق السيف العزل -كما يقولون- فقد لمس الشباب قدرتهم ونجاحهم علي الحشد وتحريك الشارع وشاهدوا استجابة الجماهير لهم؛ ومن هنا تحول شعار الصفحة من " **لا للتعذيب**"إلى شعار " **الشعب يريد إسقاط النظام** ".

وصل عدد أعضاء الصفحة قرابة **٩٠,٠٠٠**عضو في هذه الأثناء..عندما دعت لجمعة الغضب يوم ٢٨ يناير،وظلت الصفحة تمارس دورها في الحشد الجماهيري للشباب للنزول للميادين والتظاهر ضد النظام وخاصةً بعد عودة الإنترنت بعد قطع النظام له ووصل عدد أعضاء الصفحة بعد موقعة الجمل الشهيرة قرابة **٢٠٠,٠٠٠**عضو، وبعد تنحي الرئيس مبارك مارست الصفحة نشاط التوعية السياسية للشباب وتوفير أدوات العمل السياسي ووصل عدد الأعضاء فيها الأن مايزيد عن **٢ مليون عضو**(مايو ٢٠١٢)

الفريق المؤسس لهذا المشروع الثوري الرائد هما:

١ - الشاب وائل غنيم: المؤسس الرئيسي ومدير الصفحة: شاب مصري يعمل في شركة جوجل مديراً للتسويق في الشرق الأوسط متنقلاً بين مصر والإمارات.

٢ -عبد الرحمن منصور: المدير الثاني الأساسي، وانضم للفريق بعد تأسيسه بأيام: وهو شاب تخرج حديثاً في كلية آداب قسم إعلام، جامعة المنصورة، وناشط إلكتروني وصحفي حر.

من خلال ما سبق يتجلى لنا مدى أهمية هذا المشروع الثوري للساحة المصرية للتالي:

١ – وفرت الصفحة فضاءاً مفتوحاً لتلاقح الأفكار الثورية والتغييرية للشباب المصري العابر للأيديولوجيا.

٢ – كانت هذه الصفحة هي الداعية الأول لتظاهرات ٢٥ يناير والتي عبدت الطريق أمام انتصار الثورة المصرية.

٣ – نجحت الصفحة في إنتاج واقع سياسي جديد ميداني عبر الأنشطة الإحتجاجية التي انطلقت في طول مصر وعرضها؛ وقد شارك د. محمد البرادعي(رئيس الجمعية الوطنية للتغيير في مصر) في بعض الوقفات التي دعت لها الصفحة في الإسكندرية.

٤- الظهور الإعلامي لمؤسس الصفحة وائل غنيم علي الفضائيات المصرية كان أحد النقاط الفارقة في تاريخ الثورة المصرية من حيث زيادة أعداد الجماهير المتظاهرين في الميادين العامة المصرية وخاصة ميدان التحرير .

من المفارقات اللطيفة في هذا المسار أن الشاب عبد الرحمن منصور كان علي تواصل معي بحكم أنني ألفت كتاباً في العام ٢٠٠٧ بعنوان- حركات التغيير والحراك الجماهيري[١٠٥] – عرضت فيه تجارب الشعوب في التخلص من القهر والاستبداد فكان حريصاً علي المعرفة، وقد لمست فيه نهماً معرفياً تجاه ما يخص علوم التغيير السياسي ومقاومة الأستبداد ،و في ظل القمع الأمني الشديد في عهد الرئيس المخلوع محمد حسني مبارك ،لم يعلن لي منصورلي عن دوره في إدارة صفحة كلنا خالد سعيد.

ومن خلال ما تقدم من مقاربة معرفية لمحور المشاريع الفارقة في إطار الإجابة عن سر فاعلية الشباب العربي في زمن الثورات العربية يتجلى لنا مدى القدرة الإبداعية المتولدة لدي الشباب العربي ،وأن هذه النماذج الثلاث للمشاريع الميدانية الفارقة هي نموذج صغير يبدو كشجرة متواضعة تقف خجولة علي أطراف غابة كثيفة من

١٠٥- ياسر الغرباوي – حركات التغيير والحراك الجماهيري – دار مراصد – الإسكندرية – ٢٠٠٧ – الطبعة الأولي

الأشجار الوارفة الظلال الكثيرة الثمار؛ فما وقع من جهود بطولية في ساحات وميادين التغيير في تونس ومصر وليبيا وما تشهده أحياء أدلب ودير الزور وشوارع دمشق من بطولات لايمكن لأحد أن يحصيها ويدونيها ففي كل ساعة ودقيقة من عمر الثورة بالتأكيد هناك ملاحم وبطولات وإبداعات يعجز القلم عن تدونيها وتسجليها. وقبل هذا لايمكن أن ننسي الشهداء الذين سطروا في صفحات مضيئة من ملاحم البطولة والفداء والتضحية.

الفصل الخامس

الفـنون وثـورات الـربيـع العـربــي

إنتاج لغة جديدة

حقق شباب ثورة الربيع العربي نجاحاً كبيراً تمثل في القدرة علي جذب ملايين الأفراد من كافة طوائف الشعب المختلفة للعمل الثوري وبنطاق عريض شمل جميع محافظات وبلدان وقرى هذه البلدان،والسبب الرئيسي في هذا الإنجاز الجماهيري الكبيرهو أن هذه الكوكبة الثائرة الشابة قد نجحت في إنتاج لغة جديدة[١٠٦] ورشيقة تناسب أذواق كل الجماهير العربية.

ومن خلال هذه اللغة الجديدة تم نقل القيم الثورية الفاعلة للوجدان العربي والعقل البسيط والمركب والأمي والمتعلم، لأنها نسجيت حروفها الجديدة من البيئة المحلية ولمست بقواعدها البسيطة شغاف القلوب ،وحفرت بكثافة كلماتها المعاني في العقول فكان اسم هذه اللغة هي" الفن ".

ومفرادت هذه اللغة تتكون من الراوية، والفيلم والنشيد، والأغنية، والقصيدة، والموال، والرسم، والمسرحية، ودور السينما والنكات وغيرها من الوسائط الفنية المبدعة ،فقد استخدام الشباب قدرتهم علي التواصل مع الجماهير عبر وسائل الإعلام الجديدةمن توفير محتوى فني يخاطب الجماهير ويحرضهم علي الثورة والفعل الثوري وهذا امتد فترة زمنية طويلة قبل الثورة بسنوات وتكثف أثناء الثورة ونضج بعد الثورة؛ وقبل أن نفصل في هذا المحور- اللغة الجديدة- الفن؛ لابد أن نقف أولاً حول طبيعة دور الفن في التحولات الكبرى التي تمر بها الأمم والشعوب.

يلعب الفن دوراً مركزياً ويعتبرهو همزة الوصل بين قطاعات المجتمع والتي تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي:

الأولي : **طبقة المفكرين والفلاسفة.**

الثانية : **طبقة المثقفين والمبدعين.**

الثالثة : **الجماهير العامة.**

فمن خلال طبقة المثقفين والكُتاب و الفنانين بإختلاف تخصصاتهم المتنوعة يتم نقل الأفكار العالمة والكبيرة والمنفتحة علي المستقبل من خلال إبداعاتهم الفنية عبر الأغنية والمسرحية والفيلم والراوية ، وهذا كان واضحاًبشكل مكثف في التجربة الغربية المعاصرة ؛فعبر الفن والأغاني والروايات والمسرحيات تم نقل أفكار الفلاسفة الكبار مثل كانط وفولتير وهيجل...إلى الجماهير الأوربية ،فليس كل الناس عندهم القدرة علي إستيعاب

١٠٦- المصدر السابق

الأفكارالفلسفية الموغلة في العمق علي أهميتها، ولكن عقول الناس تأنس بالمسرحية القائمة علي رواية فلسفية جيدة أو الفيلم القائم علي فكرة مبهرة.

وهذا ما حدث مثلاً مع الفليسوف(سقراط)الذي نقل مجال الفلسفة من الإهتمام بقضايا ما وراء الطبيعة إلى فضاء أوجاع الناس في محاولة للإجابة علي سؤال فلسفي عملي وهو (كيف يمكن أن يعيش الناس في ظل جمهورية عادلة وتحترم الكرامة وتقدر البشر؟) ،فلذلك يُقال عن سقراط أنه نجح في نقل الفلسفة من برجها في السماء ووضعها علي الأرض.

وعبر الفنانيين المبدعيين تنقل الأفكار المتجددة لعموم الجماهير وتهدم الأساطين الباطلة وتنتشر القيم الواعدة التي تقدر الكرامة والحرية والعدالة ،وميزة الفن أنه يعمل في كل الظروف والأحوال السياسية المختلفة سواء الضاغطة من وجود إستبداد وسلطة غاشمة ،أو الحافزة وخاصة عندما يكون الفنان حامل رسالة يعبرعن اهتمامات الناس في قوالب فنية مبدعة تفتح لهم طاقة الأمل وتنير لهم الطريق.

ويعتبر بعض النقاد أن "وجود الديكتاتورهو العامل المحفز لوجود الرواية السياسيةالتي تعبرعن أوجاع الناس ومن أشهر الأمثلة علي ذلك رواية "السيد الرئيس" للروائي الجواتيمالى(ميجيل انخل أوستریاس) والفائز بجائزة نوبل عام ١٩٦٧."[١٠٧]

ويعبر الأستاذ حسن بن حسن*-عن هذه القضية عبر مقابله شخصية معه بقوله" أن القدرة علي التواصل بين الأفكار العالمة والحساسية العامة – الجماهير – يُحدث الفارق في حياة الشعوب والأمم خاصةً في لحظات التحول الحضاري،ولذا فهو يعتبر أن ميلاد شبكة الجزيرة في فضاء العالم العربي كان بمثابة افتتاح عصر جديد للمنطقة لأنها نقلت القضايا المركزية للأمة(الاستعمار،والاستبداد،والفقر،والجهل...)من فضاء المفكرين والمثقفين إلى فضاء رجل الشارع العادي علي إختلاف مكانه وموضعه"

١٠٧- مجلة وجهات نظر – القاهرة – العدد ١٤٦- ٢٠١١ ص
*باحث تونسي متخصص في الفلسفة الغربية

لغة الفن وتحديات الأمة

كثيرة هي التحديات التي تحدث في حياة الأمم والشعوب من فقر وقهر،وإستعمار،وهزيمة أو إنتصاروعلو أو إنكسار....كل هذه التحديات تصبح خرساء ،بكماء،عمياء..طالما أنها بلا لغة تعبر عنها وتمسك بها وتشرح طبيعتها ؛وهذا هو التحدي ..طالما أنها بلا لغة معبرة فلن تجد صدى لها وسط الجماهير،فالمريض لا يبرأ إلى إذا عبر عن ألمه للطبيب،والجاهل لايشفي من داءه إلا إذا عبر عن شوقه للعلم ،والطفل الرضيع يجذب إنتباه أمه عبر الصراخ الحاد.

فالتحديات الكبرى للأمم لايمكن تجاوزها إلا إذا أصبحت لها لغة مفهومة تصل لكل الجماهير في هذه الأمم حتي تسنهض همتهم وتطلب دعمهم ،وليس هناك لغة أكثر انتشاراً وأسرع إستعاباً من لغة الفن الرشيقة التي تحمل الأفكار الكبرى إلي الجماهيرعلي نسمات اللحن البديع ،والفيلم الرصين،والقصيدة الواعية،والرواية الشيقة، والموال الشعبي اللطيف...وغيرها من وسائل الفن المبدعة.

الربيع العربي والفن :

المراقب لطبيعة الصراع بين المستبدين والثوار يدرك أن ميدان المعركة الأول والأخير هو كسب الطرف الثالث – الجماهير – فمن يفوز به يفوز بالمعركة بالضربة القاضية ،فالمستبد يراهن علي تغيب وعي الجماهير ،والثوار يراهنون علي زيادة وعي الجماهير ،وفي ظل هيمنة المستبد علي وسائل الإعلام الرسمية أبدعت النخبة الثائرة في المجتمع العربي – الشباب – وسائل تواصل جديدة قادرة علي خرق السيطرة الرسمية ؛وكان التحدي هو إنتاج محتوى فني وأدبي مناسب لثقافة الجماهير تتوفرفيه الخفة.. والبساطة ..وسرعة الإنتشار وقد تم لهم هذا بالفعل عبر قصائد الشعراء الثوار بالفصحى والعامية وعبر الصورة التي تفضح وحشية القمع الممارس ضد المواطنين وعبر ما يعرف بمسرح الشارع الذي أبدعه الثوار؛ويكفي دلالة علي إرتباط ثورات الربيع العربي بالأدب والفن أن يكون شعار الثورة الأول في الربيع العربي ثورة الياسمين في تونس هو مطلع قصيدة الشاعر الشاب (أبي القاسم الشابي) والتي كانت تحت عنوان:

"لحن الحياة"

إذا الشّعْبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَاةَ فَلا بُدَّ أنْ يَسْتَجِيبَ القَدَر

وَلا بُدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِي وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر*[١٠٨]

١٠٨- مجلة وجهات نظر – القاهرة – العدد ١٤٦- ٢٠١١ ص٢١

وقد مرت علاقة ثورات الربيع العربي بالفن الثائر عبر ثلاث محطات رئيسية هي :

١- ما قبل الثورة : مرحلة بناء القدرة

٢- أثناء الثورة : مرحلة الإشتباك

٣- ما بعد الثورة : فرحة النصر

المحطة الأولي مرحلة ما قبل الثورة

الإعداد للثورة أو ما يعرف بمرحلة بناء القدرة ؛تهدف إلى جذب أكبر عدد من المناصرين للثورة والمؤيدين لها والراغبين فيها والمؤمنين بها ،وهذا يحتاج إلى خطاب فني متنوع يناسب كل الأذواق والأعمار والأماكن ،وسوف نستعرض في الصفحات القادمة بعض الأمثلة المعبرة عن الأشكال الفنية في كل مرحلة مثل أشهر القصائد والروايات والأفلام والمسرحيات التي تمثل كل محطة من المحطات الثلاث السابقة.

القصيدة المتمردة

وتجلي هذا في إنتشار العديد من الأشكال الفنية مثل القصائد الشعرية سواء القديمة منها والحديثة سواء كانت بالفصحى أو العامية التي تسخر من المستبدين وتفند مزاعهم وتكشف سواءتهم أمام الرأي العام، فلغةالشعر سريعة الإنتشار مفهومة وساحرة للعامي والمتعلم كما قال صلى الله عليه وسلم "إن من البيان لسحراً" رواه البخاري.

ومن الأمثلة علي ذلك قصائد الشاعر(عبد الرحمن يوسف القرضاوي) شاعر حركة كفاية- والشاعر تميم البرغوثي ؛والشاعر المخضرم رفيق ضرب الشيخ إمام-(أحمد فؤاد نجم) والذي تصدى لملف توريث الحكم في مصر بقصيدة شهيرة بعنوان "نؤيد سيادتك " كتبها الشاعر قبل ثورة ٢٥ يناير، يسخر فيها من الرئيس السابق حسني مبارك ويستهزئ بفكرة التوريث ويلقى الضوء على مايعانيه الشعب بسبب سياسات مبارك الفاسدة ورجاله الذين أذاقوا الشعب ويلات الجوع والفقر والمرض والبطالة ..جاء فيها:

نؤيد سيادتك لفترة جديدة

نكمل خلالها المسيرة السعيدة

وبالمرة فيها نبيع الحديدة

مفيش حاجة تانية نبيعها خلاص

نؤيد سيادتك لأجل المزيد

من اللي تحقق بفضلك أكيد

بقينا خلاص ع الحميد المجيد

وربك لوحده فى إيده الخلاص

نبايع سيادته ولا حد غيره

كفاياعلينا نبرطع في خيره.

وكذلك قصائد شاعر العامية المصرية-هشام الجُخ-ومن أبرزها قصيدة "مزق دفاترك القديمة كلها" والتي ألقاها قبل ثورة ٢٥ يناير المصرية،جاء فيها...

خبئ قصائدك القديمة كلهامزق دفاترك القديمة كلها

خبئ قصائدك القديمة كلها واكتب لمصر اليوم شعرا مثلها

لا صمت بعد اليوم يفرض خوفهفاكتب سلاما نيل مصر وأهلها

عيناك أجمل طفلتين تقرران بأن هذا الخوف ماض وانتهى

كانت تداعبنا الشوارع بالبرودة والصقيع ولم نفسر وقتها

كنا ندفئ بعضنا في بعضنا ونراك تبتسمين ننسي بردها

وإذا غضبت كشفت عن وجهها وحياؤنا يأبى يدنس وجهها

لا تتركيهم يخبروك بأنني متمرد خان الأمانة أو سها

الفيلم المُحرض

وأيضا ساهمت الأفلام السينمائية بحظ وافر في هذا الإطار يأتي فيلم "هي فوضى": وهو فيلم سينمائي مصري يتناول موضوع الفساد في مصر،وتجاوزات الشرطة المصرية، الفيلم من كتابة ناصر عبد الرحمن ومن إخراج يوسف شاهين وخالد يوسف؛ويعتبر الفيلم آخر الأفلام التي أخرجها المخرج المصري الراحل يوسف شاهين، حيث شاركه في إخراجه تلميذه المخرج خالد يوسف.

جاء الفيلم (وهو إنتاج مصري فرنسي مشترك، كعادة يوسف شاهين في أفلامه) كختام لرحلة المخرج المصري يوسف شاهين كثائر ظل مهموماً بقضايا وطنه،حيث جسد الفيلم بانورما جامعة لصور الفساد والفوضى التي يعيشيها المجتمع المصري في العقد الأول من الألفية الثالثة، كما مثل مصر في مهرجان فينيسا لعام ٢٠٠٨.

تدور أحداث الفيلم في الزمن الحالى ويروي قصة تدور بشكل أساسي حول شخصية واحدة، كما يبرز الفيلم الفساد المتجسد في القمع المباشر والرشوة والمحسوبية وتزوير الإنتخابات والسيطرة الغاشمة للسلطة والكبت الجنسي؛ كما يبرز الفيلم نوعاً من المقاومة وصولاً إلى ثورة جماعية في النهاية.[١٠٩]

الرواية الحاشدة

و ساهم فن الرواية العربية بدور هام في حشد الجماهير العربية للإيمان بفكرة حتمية الثورة والفعل الثوري؛ وهنا تأتي رواية "يوتوبيا"رواية للكاتب المصري أحمد خالد توفيق،التي صدرت في عام ٢٠٠٨ ،وقد جاءت الرواية في المركز الثاني في قائمة أكثر الكتب مبيعاً في دارميريت؛حيث

تدور أحداث الرواية في سنة ٢٠٢٣ حيث تحولت مصر إلى طبقتين،الأولي بالغة الثراء والرفاهية وهي (يوتوبيا)المدينة المحاطة بسور ويحرسها جنود المارينز التي تقع في الساحل الشمالى؛ والثانية فقر مدقع وتعيش في عشوائيات ،ويتقاتلون من أجل الطعام، والرواية تحكى قصة شاب غني من يوتوبيا يريد أن يتسلى ويقوم بمغامرة لكسر ملل الحياة ورتابتها وهى صيد إنسان فقير من سكان شبرا واللعب به مع أصحابه للحصولعلى متعة مختلفة؛ثم قتله والإحتفاظ بجزء من جسده على سبيل الفخر وهى من الهوايات الجديدة للأغنياء الذين يعيشون في الساحل الشمالى تحديداً في يوتوبيا التي تشكل عالم الأغنياء.

كما يعتمد أحمد خالد توفيق في بعض المواطن بشكل صريح على إحصائيات علمية وتقارير مثل تقرير للدكتور أحمد عكاشة عن الإدمان في مصر وتقرير صحفي في ملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان عن جرائم العنف ضد النساء وأيضا على موقع مصراوي كواحد من مواقع الإنترنتويظهر الشاعر عبد الرحمن الأبنودى بأشعاره السياسية والوطنية على صفحات الرواية[١١٠]

اللحن الثائر

وقد ساهمت الأغنية الثائرة والمحرضة علي كراهية القمع والإستبداد والقهر بنصيب وافر؛بل لا أبالغ إذا قلت بالنصيب الأكبر، لكونها أيسر في الإنتشار وأسرع في الحفظ ولاتتطلب إلماماً بالقراءة والكتابة ،وبذلك تكون خدمت قطاعاً جماهيراً كبيرا في الوطن العربي يعاني من الأمية ولكنه يتألم لقضايا وطنه وأمته.

وقد تنوعت هذه الأغاني بشكل كبير منها ما ينتمي للأغنية الكلاسيكة ،ومنها ما ينتمي لنمط الأغاني الشبابية ووصولاًإلى أغاني الراب*[١١١] العربية التي أبدعها الشباب العربي ونجحوا في نقل هذا الأسلوب الغنائي بما

١٠٩- موسوعة ويكيبيديا علي الإنترنت.

١١٠- المرجع السابق.

١١١*- الراب هو شكل موسيقي غنائي ظهر في أميركا في أوائل السبعينات عند الأقليات السوداء كتعبير ثقافي واجتماعي عن الظروف التي يعيشها هؤلاء ثم سرعان ما انتقلت عدواه إلى أوروبا فأصبحت سلاحاً للمهاجرين والمهمشين في المدن الأوروبية. أما في العالم العربي فإن التجارب ظلت "محتشمة" حتى أوائل القرن الواحد والعشرين حيث ظهرت بعض التجارب التي تتحدث عن المشاكل الاجتماعية فحسب مثل كرة القدم، البطالة والمخيمات الفلسطينية. والأنموذج الأكبر بالنسبة لشباب الراب، هو بلا شك الـ"هيب هوب" الجزائري، الذي ظل يشكل ثقافة حاضرة بقوة منذ وقت طويل، ومنه انتقلت "العدوى" أواخر التسعينات إلى العالم العربي.

يناسب البيئة العربية ،وقد حقق هذا النوع من الأغنية انتشاراً كبيراً وسط شرائح الشباب ومن أشهر هذه الأغاني أغنية "ضد الحكومة " للمغني المصري الشاب رامي دونجوان، وكانت أغاني الراب التونسية قد شقت طريقها مبكراً ومن أشهر هذه الأغاني أغنية"ريس لبلاد" للمغني التونسي الشاب حماده بن عمر الملقب بـ"الجنرال."؛والتي غناها بعدما حرق الشابمحمد بو عزيزي نفسه احتجاجاً على الوضع السائد؛ولأن كلمات هذه الأغنية تمس مباشرة مشاعر الشباب انتشرت في شبكة الإنترنت انتشار النار في الهشيم.

ولعل من المفيد هنا ذكر تعليق الفليسوف التونسي (أبو يعرب المرزوقي) حول استخدام الفنون في الثورة وخصوصاً أنماط من الفن والغناء التي يدعي البعض نسبتها للحضارة الغربية ؛وبالتالي يرجع البعض الفضل في إنتصار الثورات إلى استخدام هذه الفنون الغربية؛حيث يقول:

" من خلال إستقراء تاريخ نشأة هذه الفنون مثل موسيقي الراب مثلاً؛ ندرك أنها انتجت في محاضن ثورة الزنوج في أمريكا الشمالية ضد قمع البيض وفي ثورات أمريكا اللاتينية –أهل البلد- ضد الغازي المستعمر،وفي ضواحي المدن الأوربية من قبل المهاجرين الفقراء المهمشين من الأغلبية الأوربية؛إذن فهذه الفنون نشأت ضد الهيمنة الغربية لتصبح صوت المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها ،فهذه الفنون تمثل في المجمل صرخة العالم الثالث ضد ظلم العالم المتقدم مادياً"[١١٢]

النكتة الساخرة

سيكولوجية الشعب المصري منذ القدم تميل إلى التعبير عن قسوة الواقع من خلال النكتة الساخرة المعبرة عن المخاوف والآمال،فالمصريين القدماء خاصةً الفنانين منهم كانوا يسخرون من الأوضاع السياسية والإقتصادية في عهودهم عبر الرسومات الساخرة، فمثلاً مع إنتشار الفساد تتنشر لوحات مرسوم بها قطة تربي الكتاكيت ،وأخرى يوجد فيها الإله راع راكب مركب نهري ورأسه علي شكل حمار[١١٣]، وامتدت هذه الملَكة مع المصريين وتتجلي أكثر وتظهر في وقت الأزمات والثورات ،وتجلي ذلك بشكل واضح بعدما نجحت ثورة تونس وهروب(زين العابدين بن علي) حيث أخرج الجمهور المصري من جعبته العديد من النكات التي ملئت صفحات فيسبوك المصرية للتعليق علي الحدث التونسي والتي لم تخل من مدلولعميق يعكس إحساساً بالمرارة من الوضع في مصر،فمثلاً من هذه التعليقات:

- "يعني إيه كوك زيرو: يعني البرادعي يطالب بالتغيير في مصر، والشعب يستجيب في تونس!"
- "الفرق بين الشعب المصري والتونسي، إن الشعب التونسي تقول له ثور فيثور والشعب المصري تقول له: ثور يقول احلبوه".!

١١٢- أيو يعرف المرزوقي – استئناف العرب لتاريخهم الكوني – الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت -٢٠١٢- الطبعة الأولي –ص ٣٦

١١٣- الأعمال الفنية غير التقليدية في الفن المصري-محمود الجراحي-رسالة دكتوراه غير منشوره-جامعة حلوان-٢٠٠٨.

- "على مسئوليتي : أنباء عن نية البرادعي الهجرة إلى تونس".
- "تونس اختارت التغيير ومصراختارت شيبسي بالجمبري".
- "الشعب التونسي أراد الحياة فاستجاب القدر..الشعب المصري أراد "الحياة" لقاها على تردد ١١٢٥٥ أفقي".
- "تبقى في بقك..وتقسم لتونس".
- "إذا الشعب يوما أراد الحياة لابد أن يستجيب القدر...أما إذا أراد النعاس فطبيعي إذن أن تدهسه البقر"[١١٤]

يتضح مما سبق ووفق الإحصائيات الخاصةبالإنترنت يتضح مدى وصول صرخة الثورة ولهيبها عبر الفن إلى قطاعات واسعة من الجماهير العربية عبر وسائل التواصل الجماهيري الجديدة التي امتلاكها الشباب وسخروها في مسار الإحتشاد والإعداد للفعل الثوري وهنا يجب الإعتراف بفضل الشباب العربي الذي تعلم الدرس ووسع شريحة التواصل مع الجماهير؛ فسابقاً بذلت الحركات الإسلامية الغالى والنفيس في منافحة المستبدين ولكن للأسف لم تستطع الوصول للجماهير العامة وتخاطبها بالأسلوب المناسب لها ،فصحيح أعواد المنابر أداة هامة وفعالة في مخاطبة الجماهير ولكنها تظل تؤثر في فئة محددة من الشعب ولفترة وجيزة جداً،ولكن تأثير الفيلم والصورة والقصيدة والأغنية والنشيد ...أبلغ أثراً في الجماهير من حيث سهولة الحفظ والإستدعاء،فكما قال الحكيم الصيني كونفوش "من يكتب الأغاني يؤثر في ثقافة الشعب أكثر ممن يكتب الدستور"

المرحلة الثانية: مرحلة الإشتباك

عندما كانت الجماهير علي خط النار وعندما اصطف الفريقان المستبد وجنوده والثوار وجماهيرهم في ساحات الشوراع والميادين،وعندما خرجت الجموع تهدر كأمواج البحر المتلاطمة تدك حصون الطغاة والمستبدين كان لابد لهم من شعارات تحمسهم ومن لغة تترجم حركتهم وتنقلها للجماهير في الداخل والخارج ،وهذا أيضا ما قام به الفن ،فكما كان أداة للحشد قبل الثورة كان كذلك أداة للثبات وفضح أساليب المستبدين الوحشية في قمع المتظاهرين.

فعبر الصور المنقولة من ميادين التغيير والتحرير في بلدان الربيع العربي وعبر الأشكال الفنية التي برزت في ساحة المعركة تأكد الجميع في الداخل والخارج من مدى تحضر هذه الثورات ومدى سليمة جماهيرها الهادرة ،فقد تجلي دور الفن هنا علي مستويين هما:

١١٤- يوميات الثورة المصرية –مجموعة مؤلفين- الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت -٢٠١١ – الطبعة الأولي ص ٢٤-٢٥

المستوي الأول المباشر : مشاركة الفنانين أنفسهم في ساحات التظاهر

وسط الجماهير وهذا أعطي زخماً كبيراً لحركة الثورة فوجود فنان وموسيقي معروف مثلعمار الشريعي بجوار شباب الثورة المصرية ودفاعه عنهم علي شاشات الفضائيات، فكك كثير من إدعاءات نظام مبارك عن الثوار،ووجود الممثلعمرو واكد[١١٥]، وخالد الصاوى، وأحمد داوود، وتوفيق عبد الحميد وتامر حبيب؛وعلي الحجار؛وجميل راتبومحمد العدل...وغيرهم من الفنانين ساهم بدرجة كبيرة في التأكيد علي أن هذه الثورات العربية هي ثورة شعب كامل بكل فئاته وليس ثورة فيصل دون الأخر.

وهذا المشهد كان حاضراً أيضا في ثورة تونس وكان علي رأس هؤلاء الفنانين نعيمة الجاني، ورؤوف بن يغلان، ومحمد علي النهدي، ولطفي العبدلي، وغيرهم من المخلصين لتونس الخضراء وتكرر هذا في ثورة اليمن الحكيمة ومازال هذا الجهد يتشكل في المشهد السوري عبر العديد من الفنانين الداعمين للثورة السورية.

الثورة تلد النجوم

ومن المفارقات العجيبة أن تصنع الثورة جيلاً جديداً من الإعلاميين والفنانين برزوا في الساحة الفنية بعدما ساندوا الثورة وقت إندلاعها عبر مقاطع فنية ساخرة علي موقع يوتبوب مثل المذيع المتألق (باسم يوسف)الذي أنتج العديد من مقاطع الفيديو دفاعاً عن الثوار بشكل متطوع ولكنه كان بارعاً بشكل لفت إنتباه الجميع وأصبح الأن له برنامج مشهورعلي أحد الفضائيات المصرية.

المستوي الثاني : إبداع الأشكال الفنية الرمزية : من رسم علي الجدران وقصائد وتمثيل وشعر وفن وتصوير ورسوم ساخرة في ساحات الثورات والتظاهر حتي بدت ميادين التغيير والتحرير كأنها كرنفالات فنيةتخاطب الرأي العام المحلي والعالمى بلغة مفهومة وثورية وعالمية لها مفعول السحر في تفنيد دعاوى الأنظمة المستبدة، وفي ذات الوقت تحمل طاقة قادرة علي حشد وجذب الجماهير المترددة،إضافة إلى دورها في تخفف الآلام النضال والإشتباكعلي الثوار في الميادين؛وسوف نعرض طرفاً من هذه الأشكال الفنية المختلفة التي ظهرت في ميدان التحرير وسط القاهرة بداية من جمعة الغضب ٢٨ /١/ ٢٠١١ حتي يوم التنحي ٢٠١١/٢/١١ حيث أبداع الثوار المصريون أشكالاً فنية تناولتها الصحافة والفضائيات العربية والعالمية " ومنها

١ - صناعة العرائس التي جسدت مسئولين، أعدمتهم الجماهير غير ذات مرة في فواصل تهريجية لا تخلو من جد؛أعدمتها بعد أن أذاقتها بعض ما تستحقه من ركل وتقريع في طقس تجريس كرنفالى شعبي، لعروسة تحمل رأس حاكم، أبى إلا أن يكون حاكماً برأس عروسة.

١١٥- نفس المصدر السابق ص ١٤١

٢- مسحراتي الميدان

حيث تمر فرقة من الشباب في حالة دروشة غنائية على المجموعات التي عسكرت في الميدان..تقوم تلك المجموعة بوظيفة المسحراتي ذلك الذي يوقظ الناس قبل أن يداهمهم الفجر فيفوتهم السحور.. لكنهم هنا يوقظون البشر ليرفهواعنهم ويستنهضونهم لكي لا تغفلعيونهم فيهاجمهم عدوهم في لحظة غادرة فهذا طبعه ولم يتخلف يوماً عن سوء ظنهم به.

٣ – عروض حركية :[١١٦]

بتجسيد حركي صامت يعبر عن عصر مبارك، مثل الذي عاينه في الميدان حين وقف يشارك الشباب تجسيد حال الشباب في عصر مبارك عبر أوضاع تمثيلية ثابتة صامتة.. ليتحول كل منهم إلى تمثال يمثل أيقونة للعصر، فهذا شاب تجمد على وضع تعاطي المخدرات، وذاك ثبت على وضع التسول، وثالث على وضع ميت!

٤ – الأغاني الوطنية والحماسية

والتي تنوعت أمزجتها الفنية ما بين كلاسيكيات تعود لسيد درويش والشيخ إمام ورموز الطرب النضالي إلى الراب مروراً بألوان الطيف الغنائية كافة..

٥ – معارض الفن التشكيلي علي جدران المباني ،والرسم علي الأرض،وكتابة مطالب الثورة بالحجارة علي أسفلت الطريق وعمل الجداريات الجميلة.

قيمة كل هذه الأعمال وقوتها كانت في رمزيتها العالية وأشكالها المهلمة فيما يعرف في فنون النضال اللاعنيف والعصيان المدني "عنصر الرمزية" فهوبالغ الأهمية من حيث قدرته علي إيصال رسالة ضمنية لتحريك الجماهير وتهديد المستبدين ؛فالذي يغني للحرية ويرسم لها وهو علي خط النار ومستعد أن يموت في سبيلها تكون قدرته علي التأثير في الجماهير المترددة له مفعول السحر.

المرحلة الثالثة : الفن وفرحة النصر

بعد نجاح ثورات الربيع العربي في العديد من البلدان العربية خاصةً تونس ومصر وليبيا واليمن ظل الفن حاضراً ومظللاً المشهد الثوري ،فلاشك أن فرص الإبداع الفني تتضاعف مع فضاء الحرية وملاحم النصر وسط فرحة الملايين بسقوط الطغاة ،فظهر نمط فني جديد مختلف نوعاً ما عن فن مرحلة الإحتشاد والإشتباك تمثل فيالتالي:

١١٦- نفس المصدر السابق

١ - سيطرة فن الرثاء وتمجيد الشهداء

تركز العمل الفني بكافة أنواعه في الفترات الأولي بعد الثورة في الحديث عن دماء الشهداء وفضلهم وضرورة الوفاء لدمائهم وضرور التواصل مع أمهاتهم وحفظ الجميل لهم، مثل أغنية " يحكي أن " كلمات الشاعرأمين حداد، وهذه بعض كلماتها

يُحكى أنّ .. الظلم استشرى

و الدم مطرطش فى النشرة

يُحكى أنّ .. إنّ إحنا سكتنا

و اتنيّلنا كدا بخيبتنا

و كإنّنا ماكَـــإنّاش كنّا

والــذل بيوصل لدقونّا

و الذل بيوصل لعنينا

٢ –بناء الذاكرة للأجيال القادمة عبر الفن؛ فقد سعي العديد من الفنانين للإمساك بأشكال الفن التي مُرست وقت الإعداد للثورة ووقت الزحف الجماهيري ،فظهر العديد من الأفلام الوثائقية التي تدون اللحظات التاريخية في حياة الأمة العربية مثل فيلم "جمهورية التحرير" للمخرجةهبة الحسيني،وخرجت الكتب التي تحوي الدواوين الشعرية التي قليت في الميادين مثل ديوان الشاعرماهر تليمة والذي بعنوان "من وحي الثورة "والذي جمع فيه أشعاره التي ألقها طوال أيام الثورة[١١٧]وإقيمت العديد من المعارض الفنية لعرض لوحات فنية عن الثورة ومعارض الصور الضوئية التى تؤرخ ليوميات الثورة .

دور متجدد

ظهرت العديد من المشاكل السياسية في بلدان الربيع العربعقب الثورات بحكم طبيعة المراحل الإنتقالية مثل الإنقسام والإختلاف وبعض مظاهر التشاحن الطائفي والتشزدم السياسي ؛وبطبيعة الحال مقاومة رجال وأجهزة النظام السابق وعدم إعترافها بالثورة والتغيير؛أو ما بات يطلق عليه "لثورة المضادة"أمام هذه التحديات الثورية الجديدة لم يقف الفن والفنانين والمبدعين متفرجين وإنما أبدعوا أشكالاً فنية جديدة تعالج هذه المستجدات المتلاحقة بلغة رشيقة ومحمسة وواعدة في محاولة تهدف إلى إرجاع الجماهير أولاً والنخب السياسية المتشابكة ثانياً إلىروح الثورة التي تجلت في ميادين التحرير والتغيير من الوحدة والترابط والتآزر والتي من خلالها تمكنت الشعوب من إسقاط الطغاة.

١١٧- ماهر تليمه – ومن وحي الثورة – مكتبة جزيرة الورد –القاهرة – ٢٠١١- الطبعة الأولي

في نهاية المطاف يتجلى لنا أن مجالات نجاح الثورة متعددة ومتنوعة فإذا كان إنجازها الأعظم يتجلى في إسقاط الأنظمة المستبدة فهذا يمثل رأس الجبل في سلم الإنجازات ؛أم الإنجاز الأكبر هو إدراك الشعوب العربية لكرامتها وذاتها الحضارية وقدرتها علي الفعل والتغيير،وهذا تم علي أثير موجات الفن والإبداع عبر الوسائط الفنية المنتوعة.

فبفضل الفن وصل عطر الثورة الشذيإلى كل شارع وحارة، وزنقة وحي، وجامعة وجمعية، ومسجد وكنيسة ،ومصنع وبيت،وخيمة ومستشفي ،ومدرسة وكُتاب ،نقابة ومؤسسة ،حتي غدا شعارهم .."**الشعب يريد إسقاط النظام**" مطلباً عاماً وعاجلاً واجب التنفيذ في التو واللحظة.

الفصل السادس

بواعث ومظاهر ثورات الربيع العربي

البواعث والمظاهر

من خلال ماسبق تعرفنا علي بعض الأدوات والأسباب التي ساهمت بدرجة كبيرة في نجاح ثورات الربيع العربي سواء من زواية العامل الديمغرافي (شرائح السكان) ودور الشباب في الثورة وتعرفنا علي جوانب الفاعلية التي أعطت لهم قيمة مضافة من خلال التعليم وإحتراف التعامل مع وسائل التواصل الإعلامية الجديدة وقدرتهم علي إنتاج لغة فنية راقية ومن قبل هذا إشتغالهم علي تغيير عالم الأفكارعبر تنقيه من الحشائش الفكرية الضارة الداعية للإستسلام والقعود،وكل هذا كان يمثل جانباً واحدة من وجه العملة؛وللأمانة العلمية فالتعامل مع الظواهر الإنسانية والحضارية مثل حدوث الثورات وتقدم الدول وقيام الحضارات وغيرها من الأحداث الإنسانية لايمكن حصر أسباب حدوثها ونشأتها ؛وأيضا نجاحها أو فشلها في عنصر واحد أوزاوية واحدة ..وإنما هناك مقاربات علمية متنوعة للحدث تحاول الوقوفعلي الأسباب المباشرة التي كانت خلف الأحداث.

ولذلك في هذه الصفحات القادمة سوف نتحدث عن البيئة الاجتماعية والإقتصادية والسياسية التي ساهمت هي الأخرى في تأجج الغضب الشعبي حتي تكثف في هذه اللحظة التاريخية وتقاطع مع مسار الثورة فتحول إلى ثورة سليمة مبدعة.

النسق العام المشترك

بطبيعة الحالتختلف بيئة تونس عن مصرعن ليبيا عن اليمن فكل بيئة خصوصيتها التي تميزها عن الأخرى ولكن في هذه الصفحات القادمة سنركز علي القواسم المشتركة التي كانت سبباً مباشراً في غضب الجماهير وإندلاع لهيب الثورات وسط جموع السكان في بلدان دول الربيع العربي .

جدير بالذكر أن مؤشرات تقاريرالتنمية والفساد ودرجة الديمقراطية ومستويات التعذيب تشير إلى تشابه كبير في الأجواء والمسببات والنتائج ،فالحكم الإستبدادي والتسلطي والمستبد كان يشكل غالبية أنظمة الحكم في بلدان الربيع العربي مع اختلاف في بعض العناوين.

وقد عبرعن ذلك د.عبد الوهاب الأفندي بقوله "الأنظمة العربية القائمةوالتي تتراوح بين الملكية المطلقة والجمهورية الثورية ولاننس الراديكإلية الإسلامية،بينها قواسم مشتركة يمكن إجمالها في التالي:نظام تفقد فيه الإنتخابات النيابية الحرية والشفافية وتنتج مجلساً نيابياً من لون واحد ،كما تضيق فيه حرية الصحافة ومساحة العمل السياسي والحقوقي ،ويستخدم فية القضاء للتنكيل بالخصوم ،ويكرس فيه الدستور وجود حكم غير مقيد

بزمن ولا خاضع لرقابة برلمان أو سلطة قضاء ،ويصبح الحزب الحاكم مجرد جهاز إداري يقوم عليه موظفون بلامشروع ولا مصداقية"[١١٨]

ومن خلال دراسة البواعث المباشرة التي أدت إلى لقيام ثورات الربيع العربي يمكننا أن نرسم إطار معرفي يساعدنا في فهم ما جرى؛ويساعدنا علي فهم طبيعة المرحلة الإنتقالية وعلي إستشراف مستقبل هذه الثورات في المدى القريب أو البعيد..

ومن أهم البواعث التي حركت الجماهير العربية وحفزها علي للثورة علي الإستبداد والطغاة التالي :

١ – **إنتشار الفقر والجوع والبطالة بين سكان الدول العربية:**ففي تقديرات تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٩[١١٩] ورد التالي في هذا الخصوص:

–قرابة **٦٥ مليون** إنسان عربي يعيشون في حالة فقر.

–**٣٤،٦ مليون** إنسان عربي كانوا في عام ٢٠٠٥ يعيشون فقر مدقع.

– معدل الفقر العام في بلدان العالم العربي تتراوح بين **٢٨،٦ إلى ٣٠%** خاصةً في سوريا ولبنان.

– نسبة الفقراء في مصر بلغت في ٢٠٠٩ قرابة **٤٠%** من إجمالى السكان وقرابة **٥٩%** في اليمن.

ـ – قرابة **٨٦%** من سكان دولة المغرب يعتبرون أن الفقر هو المهدد الأكبر لهم.

– نصيب دخل الفرد العربي من الناتج المحلي الإجمالى في البلدانالعربية لم يتجاوز **٦،٤ %** من العام ١٩٨٠ – ٢٠٠٤ .

– تبلغ نسبة البطالة الإجمالية في العالم العربي قرابة **١٤,٤ %** من إجمالى القوي العاملة في العام ٢٠٠٥ .

– في عام ٢٠٢٠ ينبغي علي الدول العربية أن توفر قرابة **٥١** مليون وظيفة.

- تأتي الجزائر في مقدمة الدول العربية الأعلي نسبة في معدلات البطالة وتأتي الإمارات في قائمة الدول العربية الأقل نسبة في البطالة.

١١٨- مجلة وجهات نظر – القاهرة – العدد ١٤٦- ٢٠١١ ص١٦

١١٩- تقرير التنمية الإنسانية للعالم العربي ٢٠٠٩ – برنامج الأمم المتحدة الإنمائي

-بلغت البطالة في سوريا في العام ٢٠١٠ قرابة **٢٠%** من قوة العمل.[١٢٠]

٢- قمع الحريات وانتهاك حقوق الإنسان في البلدان العربية وفق التالي:

– كان هناك قرابة **١٠,٠٠٠** معتقل سياسي في مصر في العام ٢٠٠٥

– وكان هناك قرابة **١,٠٠٠** معتقل في اليمن في العام ٢٠٠٥.

-كان هناك قرابة **٢٦،٠٠٠** ألف معتقل في العراق في العام ٢٠٠٥ وانحفضوا لقرابة **٢٤،٠٠٠** في العام ٢٠٠٧

– بلغ عدد معتقلي الرأي في لبنان قرابة **٥،٨٧٠** في عام ٢٠٠٧.

– وقع وزراء الإعلام العرب ما عدا دولتي قطر ولبنان في ١٣/ ٢/ ٢٠٠٨ علي اتفافية عرفت بإسم "مبادىء تنظيم البث الإذاعي والتليفزيوني" وكان الهدف منها قمع هامش الحريات المتاح في الفضائيات العربية.

– تم في مصر مدّ العمل بقانون الطوراىء لمدة جديدة زاد فيها القمع للحريات وحقوق الإنسان.

– تحظر **٦** دول عربية من حيث المبدأ إقامة أحزاب سياسية أصلا.

-تعديل الدستور المصري بجعل فرصة الترشح مفتوحة فقط أمام رؤساء الأحزاب المرخصة.

٣ – علي مستوي مؤشرات تدهور الوضع الصحي للسكان العرب هناك بعض المؤشرات كتالى[١٢١] **:**

– تبلغ نسبة الإصابة بفيروسات الكبد الوئابي بين المصريين المتبرعين بالدم قرابة **٢٠%** من اجمإلى المتبرعين.

- قرابة **٣،٣١٣** من كل ١٠٠,٠٠ شخص مصابون بمرض الملاريا في كل من السودان وجبيوتي والنسبة الأكثر إرتفاعاً بالإصابة تأتي في الصومال.

–عدم الإنصاف في توزيع الخدمات الصحية داخل الدول العربية مع تدني مستواها العام.

– تقرير منظمة الصحة العالمية في العام ٢٠٠٠ احتلت الدول العربية مراتب متدنية في مستوي النتائج الصحية الجيدة.

١٢٠- نفس المصدر السابق
١٢١- نفس المرجع السابق.

– لاتوجد عادلة في نسب توزيع الكادر الطبي من أطباء وممرضين وغيرهم بين الأماكن الريفية والحضرية في البلدان العربية.

هذه الإحصائيات تمثل بعض الجوانب التي تكشف كم معاناة المواطن العربي من التهميش والفقر والجوع وإمتهان الكرامة الإنسانية ؛وقد اكتفيت بهذه الجوانب الثلاث فقط (الفقر والصحة والحريات)..ففقدان هذه الثلاث في حياة الشعوب كفيل بصناعة التمرد والثورة

وهنا يأتي سؤال هام: إذا كانت هذا الإحصائيات تشمل العديد من البلدان العربية، فلماذا بدأت الثورة في تونس دون غيرها من البلدان التي ربما تبدو أكثر فقراً ومعاناة منها؟

وكما ذهبت في مقدمة باب البواعث وأوضحت أن هناك إختلاف وتنوع في البيئات الاجتماعية والسياسة والإقتصادية رغم إتفاقها في المعاناة من الإستبداد والفقر والبطالة ،فكانت تونس مثلاً واضحاً علي هذه الخصوصية في ظل المعاناة العامة ؛وهناك جملة من الأسباب هي التي عجلت بالثورة بها دون سائر البلدان العربية ومن هذه الأسباب ما يلي :

١ –"كانت تونس أشبه بحالة دولة بوليسية لم تتح فيها أي فسحة لحرية الإعلام ؛ووصل فيها تسامح النظام مع الأحزاب القليلة المسموح بها إلى**٣%** من الأصوات،كما لم تحترم حقوق الإنسان والمواطن.

٢ – لم يترك النظام التونسي أي مجال أو هامش لفئات وسيطة بين الدولة والشعب.

٣ – النظام التونسي بلا قضية " دكتاتورية رمادية " لا صلة لها بمزاج الشارع العام ولا تهتم بقضايا المنطقة العربية.

٤ – المجتمع التونسي مجتمع متجانس وليس به تنوع طائفي أو عرقي يُذكر يمكن أن يعيق العمل الثوري.

٥ – يتمتع المجتمع التونسي بطبقة وسطى واسعة ونسب تعليم عالية"[١٢٢]

في ضوء هذه الأسباب السابقة يمكننا أن نتفهم الأسباب العامة التي جعلت ثورات الربيع العربي تبدأ في تونس ولكن هناك أيضاً جملة من الظروف الدولية الجيواستراتيجية والإجراءات الداخلية وقت الثورة والإحتشاد في داخل تونس حيث عجلت بإنتصار الثورة ،وجعلت منها نموذجاً يمكن تكراره وهذا ما حصل بالفعل؛ ومن هذه الإجراءات الداخلية:

١٢٢- ورقة معلومات – ندوة ثورة الشعب في تونس – المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسيات – الدوحة ٢٠ يناير ٢٠١١

١ –وصول المظاهرات والإحتجاجات إلى العاصمة التونسية في أقل من شهر جعلت الجيش التونسي يحسم خياره بين الإنحياز للشعب أو النظام واختار الوقوف جانب الشعب.

٢- "مغادرةابن علي الحكم سريعاً تركاً حزبه ذي السبعين ألف متفرغ؛وبالتالي اختيار هؤلاء التخلي عن الأسرة الحاكمة والحفاظ علي أنفسهم"[١٢٣]

وبالنسبة للوضع الجيواستراتيجي الذي ساعد في إنتصار الثورة التونسية بشكل سريع وسلمي ومكّن لقوى الثورة من سرعة إنجاز إستحقاقات المرحلة الإنتقالية بأقل الخسائر الممكنة يتضح بالتالي:

أولاً: عدم وجود مصالح إقتصادية غربية كبيرة في تونس؛ لفقر تونس الإقتصادي وعدم تمتعها بأي ميزة إستراتيجية مثل موقع مصر مثلاً أو بترول ليبيا ؛أو تعقد موقعها الإستراتيجي مثل سوريا أو فزاعة القاعدة مثل اليمن.

ثانياً: وجود حزب النهضة وزعيمه راشد الغنوشي والذي يمتلك رؤية إسلامية وسطية تبدو قربية من الفلسفة الليبرالية الغربية؛وحصول حزبه(حزب النهضة)علي الأغلبية في الإنتخابات التونسية الأخيرة؛ جعل تونس بعيدة عن مسارات التعصب وفتح نزاعات مع الغرب؛ وبالتالي أصبح الغرب لايجد خطراً علي مصالحه المحدودة في تونس.

ثالثاً: "عدم وجود حدود مباشرة لتونس مع الكيان الصهيوني مثل سوريا ومصر:سهلّ من مهمة إنجاز الثورة التونسية لأهدافها بعيداً عن تدخل القوى الغربية والتي من أهم أولويتها الحفاظ علي أمن إسرائيل"[١٢٤]

ووفق ما تقدم وتهيىء للثورة التونسية بتوفيق الله سبحانه وتعالى والظرف التاريخي الداخلي والخارجي ؛تحركت قاطرة التغيير في الربيع العربي بقوة نجاح النموذج- تونس -في التغيير والتغلب علي قمع المستبد وقوته الغاشمة وانتقلت العدوىإلي مصر.. ثم ليبيا ..ثم اليمن.. ثم سوريا ...وهناك بلدان أخرى مرشحة لخوض هذه الملحمة الحضارية التي ستفتح صفحة جديدة في تاريخ الأمة العربية.

١٢٣- نفس المرجع السابق.
١٢٤- مجلة الديمقراطية –القاهرة – عدد٤٦ ابريل ٢٠١٢- ص١١٠

الفصل السابع

حصاد وتحديات ثورات الربيع العربي

ثمار الثورة اليانعة

قد حصدت ثورات الربيع العربي العديد من الإنجازات علي المستوي الداخلي والمستوي الخارجي.

أما أهم النتائج علي المستوي الداخلي فهي كالتالي:

١ - كسر حاجز الخوف وفتح باب الأمل

الثورة والتغيير روح تسري في جسد الشعوب والأمم ،روح تفتح باب الأمل، وتغلق باب اليأس، روح تنثر نسيم التفاؤل وإمكانية الفعل بدل روح الاستكانة والركون للأرض ،وهذا ما صنعته الثورة في الشعوب العربية،حيث كسرت حاجز الخوف وفتحت باب الممكنات أمام الناس، بعدما ضيق عليهم الإستبداد مسارب التغيير ونوافذ المستقبل ،وما سيأتي من نتائج للثورة إنما هو تابع لهذه الروح الجديدة التي سرت في عروق الإنسان العربي الصبور والثائر في آن واحد.

٢ – انتصار نظرية الخيار الثالث التغيير السلمي

مع سليمة ثورة تونس ومصر ونجاح الجماهير في كلا البلدين فيإسقاط النظام عبر المظاهرات السليمة، والحرص علي عدم إراقة الدماء؛ فتح ذلك مسارات جديد أمام الشعوب العربية للتغييرعبر وسائل اللاعنف من خلال الإعتصامات والمظاهرات ووسائل العصيان المدني، وقد جرب هذا الخيار وأثبت نجاحاً حقيقاً في الميدان وبالتالي تراجع خيار إستخدام العنف والقوة كخيار وحيد للإطاحة بالمستبدين.

وقد لاحظ العديد من المراقبين لمواقع الإنترنت والمتخصصين في شؤن جماعات الإسلام السياسي تراجع عدد مؤيدين لتنظيم القاعدة والمتابعين لهم علي صفحات التواصل الاجتماعي ،لأن الثورات العربية قد قوضت جوانب كثيرة في أيديولوجيا تنظيم القاعدة ،وهذا المنجز الحضاري- التغيير السلمي- علي المدى البعيد يمثل صمام أمان في اتجاه عدم إنزلاق المجتمعات العربية في صراعات داخلية دامية يُمارس فيها العنف ،وبذلك تكون المجتمعات العربية قد غيرت لغة صراعها السياسي من صراع بالرشاش إلى تتدافع عبر البطاقات الإنتخابية في جو من الشفافية والنزاهة وهذا في منجز بالغ الأهمية لمستقبل المنطقة وشعوبها بل للعالم أجمع.

٣ – نجاح الثورات العربية في الإطاحة برووس الأنظمة الفاسدة

حيث كان ذلك في العديد من البلدان العربية وخاصةً في تونس وليبيا ومصر وبدرجة كبيرة في اليمن، ومازالت تجاهد سوريا للحصول علي نفس نتائج الثورة الليبية أو المصرية ،ورغم ذلك هناك طريق طويل أمام الثوار في إطار محاربة رموز النظام السابق والذين مازالوا يمسكون بزمام الإقتصاد والأجهزة الأمنية.

٤ – أصبح الرأي العام الجماهيري طرفاً سياسياً فاعلاً ومؤثراً في الحياة السياسية:

سواء السياسة الداخلية أو الخارجية؛فلا يمكن لأي قوة سياسية أو حزبية أن تهمله وتتجاوزه بل علي العكس ،فالكل يسعى إلى إرضاء الرأي العام ومحاولة التقرب منه ،ويكفي أن ندرك حجم التغيير الحاصل في هذا الباب من متابعة إنتخابات الرئاسة المصرية من حيث عدد المرشحين ونتائج استطلاعات الرأي وتكثف ذلك في حصول أول مناظرة رئاسية في تاريخ مصر الحديث بين المرشح الدكتورعبد المنعم أبو الفتوح والأستاذ عمرو موسى والتي كان لها صدي إعلامي عربي تجاوز الجغرافيا المصرية والعربية أيضاً.

٥– ميلاد قوى اجتماعية وسياسية جديدة في المجتمع

بعد سقوط الأنظمة وإنفتاح باب الحرية شهدت الساحة السياسية ميلاد العديد من الأحزاب والقوى السياسية الجديدة ؛بعضها كان محظوراً في عهد الأنظمة البائدة وبعضها تشكل من رحم الثورة ووحيها الجديد ؛وهذا يُبشر بمدى درجة وعي المجتمعات بضرورة توفر أطر سياسية وحزبية قوية تنافس علي السلطة وفق أليات ديمقراطية رصينة.

٦– بروز دور المجتمع المدني وقدرته علي التأثير

عقب نجاح الثورات العربية انطلقت مشروعات نوعية في المجتمعات العربية خاصةً في المجال الثقافي والسياسي والاجتماعي جعلت من قوى المجتمع المدني طرفاً مؤثراً في المشهد القائم وفي المستقبل القريب والبعيد.

فقد شهدت ساحات المجتمعات العربية في تونس وليبيا واليمن ومصر مشاريع ثقافية تهدف إلي نشر الوعي السياسي والثقافي بين جموع الجماهيرعبر الوسائل الإعلامية المختلفة وخاصة في أوساط الشباب؛وتأتي في هذا الإطار:

حركة **"مصـرنا"** وهـي حركـة شبابية مصـرية منفتحـة قائمـة علـي نشـر الـوعي السياسـي والثقـافي بـين الشباب. وحركة **"استـمـر"**وهي حركية توعوية بمعطيات المشهد السياسي والاجتماعي الحـالي؛وظهرت أيضـاًالعديد من الحركات في كافة المجالات النهضوية والتنموية؛هذا بالإضـافة إليإطلاق مجموعـة مشـاريع أخرى تهتم بالتنميـة المحلية ومعالجة قضايا الفقر والجوع ،فالثورة مزقت القيود السياسية والقانونيـة التـي وضـعتها الأنظمـة المستبدة والتي حالت دون مشاركة المجتمع في قضايا الأوطان الكبرى.

وهذا كان عن ثمار الثورة علي الصعيد الداخلي :فهل هنـاك ثمـار ونجاحـات للثـورة تحققت علـي الصـعيد الإقليمـي والدولي ستنعكس بالإيجاب علي مصالح المنطقة والشعوب العربية ؟

هذا ما سنتاوله في الأسطر التالية.

ثمراث الثورة العابرة للجغرافيا

منطقة العالم العربي من المحيط إلى الخليج من أهم منـاطق العـالم من حيث الموقع الجغرافي والجيواستراتيجي فهي تتحكم في ممرات المائية الكبرى في العالم التي تربط بين الشرق والغرب ؛ثم هي تحتوي على ثروات طبيعـة هامـة مـن البتـرول والغـاز والتـي مـازال العـالم الصـناعي فـي مسـيس الحاجـة إليهـا ،هـذا عـن الأرض أمـا عـن البشر..فالمنطقة العربية هي الرقعة الأكثر شباباً عالمياً،والمتدفقة حيويـة وفحولـة وسط بيئـة سكانية عجوزة مثل قـارة أوربـا وأفريقيـا ؛وهـذا يمثـل عامـل قـوة كبيـر، فالـدول الأوربيـة فـي حاجـة إلـى تـدفق بشـري آمـن يسـاعد فـي استمرار عجلة التقدم فـي المصـانع وقطـاع الخـدمات وغيرهـا ،والمصـدر القريـب لهـذا التـدفق هـو الشـباب العربـي وهذا كان عن الجغرافية الطبيعة والبشرية .

أمـا عـن الجيوبوليتكـا والجغرافيـة السياسـية فالمنطقـة العربيـة منطقـة تـدافع وصـراع بـين القوىالكبرى المتعـددة؛ ويُضاف لهذا وجود إسرائيل في المنطقة العربية ؛وبناء علي ما تقدم ،فأي تغيير في طبيعة النظام السياسـي الحـاكم في المنطقة يعتبر حدثاً بالغ الأهمية لدول العالم أجمع علي المستوىالإقتصادي والسياسي والإجتماعي ...

فقد تعود الغرب علـي التعـاطي مـع هذه المنطقـة وفـق سياسيات مجحفة للحفـاظ علـي مصـالحه مـن خـلال طغمـة حاكمـة فاسـدة تراعـي مصـالحها فقـط -البقـاء فـي السـلطة- بغـض النظـر عـن مصـالح المنطقـة والأمـة.! فجـاء ربيـع الثـورات العربيـة الخـاطف والسـريع ..فأربـك الجميـع خاصـةً القـوى الغربيـة وإسـرائيل؛ ومن مظاهر هذه التغير والإرتباك الناتج عن ثورات العربية علي الصعيد الإقليمي والدولي:

١ – فرضت هذه الثورات علي الكيان الإسرائيلي مراجعة سياسيته العدوانية اتجاه الشعوب والبلدان العربية؛ فسابقاً كانت الأنظمة تقمع الشعوب وخاصةً وقت الأزمات الطاحنة مثل -عدوان إسرائيل علي جنوب لبنان وغزة -فأصبحت الأن إسرائيل تحسب وتقدر رد فعل الشارع العربي والجماهير ؛لأنها أصبحت ذو إرادة وقرار،وهناك الأن اضطراب في إسرائيل حول السياسة الواجب إتباعها في المرحلة القادمة مع الدول العربية بعد هذه الثورات؛حتي أن المستشرق (إلكساندر بلي فيري) يرى أن الثورات العربية تنذر بكارثة ستحل بالتجارة الخارجية الإسرائيلية،عبر التحذير من إمكانية إغلاق الممرات البحرية أمام التجارة الخارجية لإسرائيل؛وهناك تخوف في إسرائيل من تحول مصر إلى قوة إقليمية قوية علي النمط التركي ،وهو ما سيضع إسرائيل في مواجهة محور إقليمي يضم إيران وتركيا ومصر.[١٢٥]

٢ – **علي الصعيد الرأي العام الدولي:**

تغيرت صورة المنطقة العربية من منطقة خامدة وخاضعة للقهر والإستبداد والفساد إلي منطقة فرضت إحترامها الأدبي علي الشعوب الأخرى؛ بحيث أصبحت الثورات العربية ملهمة للعديد من الشعوب المقهورة لدرجة أن السلطة في روسيا والصين تخشي من إنتقال عدوى الربيع العربي إليها.

وقد سجل إستطلاع للرأي أجري في روسيا في مارس ٢٠١١ أن **٤٩%** من الروس علي إستعداد للخروج للشارع للإحتجاج ضد السلطات الرسمية بسبب الأوضاع الإقتصادية والسياسية في روسيا،قبل ذلك في ١٤ فبراير من العام الماضي -أي بعد أيام قليلة من خلع مبارك - خرجت مظاهرة للمعارضة الروسية في قلب موسكو رافعة شعار" **روسيا ستسير علي خطي الثورة المصرية "!**

فالثورات العربية دمرت الصورة النمطية التي كانت سائدة عن الشعوب العربية في ذهن المواطن الغربي وهي صورة الخانع والرافض للديمقراطية وقيم الحرية والمساواة.

٣ – بدأت القوى الغربية الكبرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والإتحاد الأوربي في الإعداد لحزمة سياسية تحاول بها أن تضمن مصالحها الإستراتيجية في العالم العربي، في ظل هذا التحول الثوري الجديد وهذه السياسيات تأخذ في إعتبارها إنتهاء فترة الحصول علي كل المكاسب دون مقابل يعود علي المنطقة بالنفع والخير.

فالثوار أنفسهم وقوى الثورة أعلنوا أنهم يحترمون كل دول العالم طالما احترمت كرامة ومشاعر ومصالح البلدان العربية؛ وهذا جعل السقف السياسي العربي في التعاطي مع القضايا الدولية مرتفع عما كان قبل ثوارت الربيع العربي ،وقد تجلي هذا في دعم حلف الناتو للثوار في ليبيا وتأيد المجلس الإنتقالى الليبيي وتقدم

١٢٥- نفس المصدر السابق - ص٩٧

خبرات تدريبية للشرطة الليبية ،وأيضاً أطلقت بريطانيا مبادرة للشراكة مع بلدان دول الربيع العربي ؛وقد خصصت لها قرابة ٦،٦ مليون جنية إسترليني وتهدف المبادرة إلى تعزيز حرية التعبير والمشاركة السياسية ودعم دور القانون .[١٢٦]

أخطاء وتحديات

ربيع الثورات العربي علي عظمته وإبداعه وما تجلي فيه من تضحيات ونضالات وبطولات أذهلت العالم أجمع يظل فعلاً بشرياً يسعى للكمال ولكن أنّا له أن يدركه؛ فهناك خصوم متربصون في الإقليم وفي الخارج ..وأنصار للأنظمة المستبدة في الداخل...وجماهير تتعجل ثمرة الثورة وشعار بعضها "العدالة والحرية والكرامة الأن..الأن" فوسط كل هذه الضغوط علي الثوار وخاصةً وأن الجسد المفجر للثورات هو الشباب دون الثلاثين عاماً؛ومعظمهم لم يمارس عملاً سياسياً متكاملاً - بمعنى أن يدخل في عملية سياسية متراكبة من بناء حزب وإعداد كوارد حزبية والدخول في تحالفات انتخابية وممارسة فن التفاوض السياسي ومعرفة فن الممكن السياسي ...إلخ- فالأخطاء المتوقعة في خضم هذا الجو الثوري المفعم بالتجدد والمفأجات في كل يوم ولحظة ستكون عالية سواءً علي المستوى الإستراتيجي أوعلي المستوى التكتيكي والإجرائي.

وليس من الإنصاف تعميم وتوحيد التحديات والأخطاء التي تحيط بالثورات العربية والتي امتدت من تونس الخضراء إلياليمن السعيد ومازالت تتلمس طريقها في سوريا وغيرها من البلدان العربية ،ولكن كما أسفلنا في عرض البواعث المحرضة علي الثورات في البيئة العربية من فقر وجوع وإمتهان لكرامة الإنسان العربي وكشفنا كم المشترك بين هذه البواعث برغمإختلاف البيئات العربية ؛سنلجأ أيضاً إلى هذا الإسلوب في رصد أهم الأخطاء والتحديات التي وقعت فيها الثورات العربية وخاصةً ما يمسي بمرحلة التحول الديمقراطي.

طبيعة المرحلة :

مراحل التحول الديمقراطي في حالة الشعوب والأمم تعد لحظة تاريخية كثيفة المشاعر والأحداث والآمال تتقاطع فيها بواعث الأمل في غد مشرق مع هواجس الخوف من الإرتداد في براثن القهر والإستبداد مرة أخري ،ويتقاطع فيها سقف الأحلام مع حقائق الواقع.. وتتعارك فيها قوي التجديد مع قوي السكون والجمود...وقوي الإجتهاد مع سلطة التقليد ،فهي بطبيعة الحال - بغض النظر عن أخطاء الثوار والثورة - مرحلة طبيعتها قائمة علي التعلم بطريقة الخطأ والصواب،فليست هناك طريقة واحدة ينبغي للثورات أن تسلكها في مرحلة التحول

١٢٦- مجلة الديمقراطية –القاهرة – عدد٤٦- إبريل

الديمقراطي،فكل بلد مدعو أن يقدم تجربة جديدة تراعي الخصوصية الاجتماعية والسياسية وتحقق له الإستقرار والإنتقال الآمن والمدروس بعناية .

ولكن الذي يخفف من ضغط هذه المرحلة ويجعلها قليلة الكُلفة علي العباد والبلاد هو وعي الثوار بطبيعة المرحلة وإدراك قدراتهم وقواتهم وتحديد سقف المطالب الواجب إنجازها ..وتقديم المهم علي الهام..وعدم فتح جبهات إشتباك تقودإلى تمزيق الصف الوطني الثوري وهذا للأسف لم يُراعى في العديد من بلدان الربيع العربي بدرجة كبيرة ؛فوقعت جملة من الأخطاء المؤلمة من قبل الثوار والجماهير الثائرة وهذا ما سنحاول رصده في الصفحات التالية :

١ – غياب قيادة منظمة قادرة علي إدارة المرحلة الإنتقالية

كما هو معروف أن أحد إبداعات الثورات العربية الأخيرة هي عدم وجود قيادة مركزية في مرحلة الإحتشاد للفعل الثوري والإشتباك الثوري ؛وهذا كان جانب قوة كبيرة مكّن الثوار والمجموعات الثورية من إعاقة يد القوات الأمنية والاستخبارتية من ضرب الثورة في مهدها.

فالحالة النضالية الجماهيرية العربية قبل ثورات الربيع العربي كانت تعتمد في فلسفة حركتها علي مجموعات منتظمة لها قيادة معروفة ومحددة - تنظيمات - لها بناء هرمي أصبح مكشوفاً للقوى الأمنية،ويمكن تقويض عمله بسهولة من خلال الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ،وبالتاليأصبحت الخبرة الأمنية للدول الإستبدادية عالية في التعامل مع فكرة التنظيم المعروف أساليبه وطرقه وأدبياته.

أذكر في هذا الإطار أن جهاز أمن الدولة المصري بلغ من الخبرة في التعامل مع الجماعات الإسلامية حداً كبيراً بحيث أن ضباطه المتخصصين في مكافحة الحركات الإسلامية بعضهم كان يحفظ الأدبيات التي تدرس في داخل هذه التنظميات ومن خلال سماع أعضاء هذه التنظميات يمكنه عمل تصنيف لأعضاء التنظيم ويعرف من خلاله مكانه ومسئوليته في هذا التنظيم أو ذلك!

لكن ما حدث في ثورات الربيع العربي وأبطل مفعول القوى الأمنية هو إعتماد الشباب علي فلسفة مجموعات العمل الصغيرة التي لايعرف بعضها بعضاً ولكنها تشترك في الهدف العام هو محاربة الفساد وإسقاط النظام حيث يعرف خبراء حرب اللاعنف هذه الطريقة باسم **"التبعثر المقصود والتجمع المدورس"** بمعني أن الفعل الثوري قبل الثورة لم يكن يحتاج إلى تجمع الجماهير والنواة الثورية- الشباب- في حيز جغرافي واحد ولافضاء تنظيمي

له عنوان ولافتة؛وإنما كان يتطلب تثوير الجماهير ونشر قيم التمرد علي الطغيان والقهر؛ وكل مجموعة تُبدع في هذا الإطار وبجهدها الخاص.

وعندما حانت ساعة الصفر ونزلت الجماهير الشوراع تجمع الملايين أيضاً في ساعة حاسمة عجزت فيها أجهزة الأمن علي وقف زحفها وتقدمها؛ كل هذا كان مفيداً ورائعاً قبل وأثناء الثورة ولكن بعد نجاح الثورة مثل نقطة ضعف للثوار والعمل الثوري!

فطبيعة مرحلة الهدم تختلف عن طبيعة مرحلة البناء، فرجل الهدم غير رجل البناء ،وبالتالي مثل غياب قيادة ثورية محترف ومعترف بها من الجميع وتمتلك التأثير في الفعل السياسي يعتبر هذا فراغاً سياسياً يجعل العديد يُزايد علي الثورة والثوار؛ وبجعل قوى أخرى غير ثورية ولكنها ربما تمتلك الخبرة التنيظمية أن تتصدر المشهد دون أن يكون للثواروالثورة رأي معتبر في طبيعة إدارة المرحلة الإنتقالية،لذلك أري أن هذا الخلل يعد خطأ استراتيجياً للثوار يجب أن يتدركوه بسرعة عاجلة .[١٢٧]

٢ – إنشغال الثوار بإدارة المطالب الجماهيرية :

تعمد رموز النظام السابق في بلدان الربيع العربي وخاصةً في حالة اليمن ومصرإغراق المجتمع في فوضى أمنية وإقتصادية متعمدة ؛تمثلت في رفض رجال الشرطة مزاولة أعمالهم وترك المجرمين يعثيون في الأرض فساداً؛ بداية من فتح السجون أمام المجرمين أثناء الثورة ومروراً بتركهم ينهشون في عرض المجتمع آناء الليل وأطراف النهار حتي بدا المجتمع مهدداً بالإنهيار الأمني والوقوع في فخ الفوضي العارمة .! والقسم الثاني من خطط رموز النظام البائد يتمثل في الضغط الإقتصادي علي الجماهير من خلال إفتعال أزمات يومية في توفر السلع الأسياسية من وقود وخبز ومواد غذائية ،وهذان الأسلوبان لمسهما الشارع في العديد من بلدان الربيع في محاولة من قوى النظام البائد لتأديب الشعبعلي قيامه بثورته؛ أو علي الأقل عمل حاجز نفسي بين الجماهير والثوار من زواية تحميل الثوار والثورة نتائج هذا الإنفلات الأمني وشُح السلع. ومع ذلك هناك قطاع من الثوار أنطلق من باب الحماسة ومحاولة تطويق الأزمة في المساهمة في حل هذه المشاكل اليومية وخاصةً في قضية توزيع السلع الغذائية وتنظيم توزيع الوقود وبذلوا في ذلك جهداً خارقاً خاصةً في الحالة المصرية ،فيكفي أن نعرف أن شباب حركة الإخوان المسلمين قد قسموا القرى والمدن المصرية إلى مجموعة من الخرائط الدقيقة التي ترصد حاجات كل شارع وعمارة من الغاز الطبيعي ويقومون بتوزيع

١٢٧- مجلة الديمقراطية –القاهرة – عدد٤٦- إبريل

أسطوانات الغاز بشكل دوري علي السكان -وهذا جهد ممتاز - ولكن علي المدى البعيد لم يحل المشكلة من المنبع.!

٣ – إنقسام القوى الثورية ودخولها في تناحر مباشر مع بعضها البعض

من الطبيعي بعد نسمات الحرية التي هبت علي بلدان الربيع العربي أن تتعدد خيارات الناس والأحزاب والقوىالاجتماعية ولكن نظراً لطول فترات القهر والإستبداد التي مرت علي المجتمعات أصبحت قدرة المجتمعات العربية علي إدارة التنوع والإختلاف تكاد تكون معدومة بدرجة كبيرة مما حول الإختلاف في وجهات النظر إلى مواقف أيديولوجية صارمة؛ وأحياناًتم إستخدم الدين فيها وأصبحت هناك إتهامات بالخيانة والعمالة والتكفير..وهذا بطبيعة الحال مزق الصف الثوري الذي بدا متماسكاً في أيام الثورة الأولي. فقد استغل رموز النظام السابق هذه الثغرة ؛وبدؤا يلعبون من خلالها علي المجتمع والثوار "حتي بلغ الأمرمن السوء أن يترشح في إنتخابات الرئاسة المصرية المزمع عقدها في ٢٠١٢/٥/٢٣ رجالات نظام مبارك المباشرين وليس هذا فحسب بل انقسمت القوي الثورية التي كانت فاعلة في ثورة ٢٥ يناير ودفعت بالعديد من المرشحين الذين ينافس بعضهم بعضاً مما قد يفتت أصوات الناخب المصري ربما لصالح رموز النظام السابق".[١٢٨]

٤ – إمتهان أساليب العمل الثوري والنضالي

الإحتشاد في الميادين حقق نتائج مباشرة تمثلت في إسقاط رأس النظام السياسي في العديد من البلدان العربية ،ولكن مع تعدد مشاكل المجتمع وإستحقاقات المرحلة الإنتقالية وحدوث إضرابات فئوية عارمة في طول البلدان وعرضها،ظن الثوار أن مقاومة هذه التحديات في المرحلة الانتقالية سوف يتم بنفس أساليب الثورة فنتج عن ذلك العديد من الوقفات المليونية التي أزعجت رجل الشارع العادي وقلصت مساحة التعاطف العريض مع الثورة وسط الجماهير تحت دعوى تعطيل عجلة الإنتاج في البلد ،فأصبح العديد من الجماهير يعتبر أن هذه المليونيات المتعددة والمتكررة المقصود منها هو إسقاط الدولة ذاتها وليس إسقاط النظام البائد ورموزه

وإذا كان الوضع في مصر وتونس فيه إمتهان واضح للميادين الثورية؛ ففي دولة مثل ليبيا لجأ الثوار إلى لغة السلاح لفض بعض النزاعات المحلية.!؛وهناك كما نقلت العديد من وسائل الإعلام إشتباكات بين مجموعات من الثوار وهذا أمر خطير ينبغي للثورة والثوار أن يتجاوزوه علي نحو سريع حتي لاتقع البلاد في حالة من الفوضى

١٢٨- مجلة الديمقراطية –القاهرة – عدد٤٦- إبريل

التـي لاتُحمـد عقبهـا ،فالأسـاليب النضـالية لفـض النـزاع مـع المسـتبد ورمـوزه لاينبغـي إسـتخدامها لإدارة ملـف الإختلاف والتنوع مع رفاق الثورة والنضال.

٥ – فتح جبهات متعددة في وقت واحد

بلغت حماسة الشباب الثوار وجرياً وراء عواطفهم ومع تحريض جهات إعلامية لهم أن يحاولوا فتح جبهات إشتباك جديدة ؛فمن المعلوم أن قضية فلسطين قضيةعربية مركزية تشغل وجدان كل إنسان عربي من الخليج إلى المحيط؛ فالقضية حاضرة في الوجدان والفعل الميداني ،ولكن أعتقد أنه ليس من الحكمة الأن التعاطي مع قضية إحتلال فلسطين ومحاولة تحريك ملفها النضالي والسياسي ولم تنته الثورات العربية من حصد نتائجها الكبرى التي قامت من أجلها أصلاً،فلذلك جاء حادث اقتحام السفارة الإسرائيلية في القاهرة من قبل بعض الثوارعملاً متعجلاً وغير مدورس كاد أن يتحول إلى قضية دولية ؛كان من الممكن أن يمثل تحدي للسياسية الخارجية المصرية في وقت حرج.

فينبغي علي الثوار والقوى الثورية مراعاة ظروف الزمن والمكان والحال والمرحلة وعدم الإنجرار إلى معارك تسنفذ جهد الثورة وتجلب لها كماً من المشاكل ربما يصعب تجاوزها بسهولة مما يهدد مسيرة ومصير الثورة.

٦ – حدوث صراع أجيال بين الثواروخبراء الواقع

صراع الأجيال ظاهرة إنسانية قديمة و تتجلي مظاهرها في لحظات الإقلاع الحضاري للأمم والشعوب؛ وتجسدت هذه الظاهرة بقوةفي بلدان الربيع العربي ،فمع النجاحات التي حققها الشباب الثوار من تفجير الثورة وإلتفاف الجماهير حولهم حدث تضخم للذات عند العديد منهم ،فأصبحوا لا يسمعون للأخرين من أهل الخبرة السياسية والدستورية والذين لم يشاركوا الأنظمة السابقة في القمع وممارسة القهر ولم يخدموا النظام السابق.

فبعض الشباب الثوار يعتبرون أنفسهم هم الوحيدين القادرين علي إدارة دفة الأمور في البلاد دون غيرهم من الأحزاب الوطنية والخبراء الوطنيين،و"هذا الاستعلاء إنعكس علي شكل قطيعة مع الأشخاص الذين يملكون الخبرة والرؤية؛ وبالتالي فقدت بعض ثورات الربيع العربي اللغة السياسية العاقلة والحكمة الدستورية الثاقبة، والحاضنة الاجتماعية المتسعة لكل أطياف الثورة ومكونات المجتمع الواحد".[١٢٩]

٧ – اضطراب العلاقات العسكرية المدنية

١٢٩- مجلة الديمقراطية –القاهرة – عدد٤٦- إبريل

في مصر واليمن كان دور الجيش في الثورة واضحاً ومؤثراً بدرجة كبيرة ،فالمجلس العسكري يتولى في مصر إدارة شؤن البلاد منذ تنحي الرئيس المخلوع مبارك ،وفي اليمن مازالت هناك قيادات في الجيش اليمني موالية للرئيس علي عبد الله صالح.

فعملياً مصر تدار الأن بإشراف المجلس العسكري ،وخلال العام والنصف من تاريخ تنحي مبارك وقعت العديد من السجالات الميدانية والإعلامية والسياسية بين المجلس العسكري والثوار والجماهير بل ووقع ضحايا وإشتباكات دامية بلغت ذروتها في أحداث شارع محمد محمود ومجلس الوزراء ومنطقة العباسية.

إذن فالعلاقة متوترة ووصلت لمرحلة من فقدان الثقة بين كل الأطراف الثورية والمجلس العسكري والأحزاب ،وهذا يرجع إلى عدم خبرة الثوار والأحزاب بفلسفة العلاقات المدنية العسكرية في المراحل الإنتقالية ومدى دقة هذه المرحلة وأنها تحتاج إلى حنكة سياسية وخبرة ميدانية حتي يمكن للبلاد أن تشهد تحولاً ديمقراطياً سليماً.

وقد أكد العديد من الباحثيين علي إمكانية عودة الحكم المتسلط إذا فشلت القوة الثورية في ضبط العلاقة بين مؤسسة الجيش ومؤسسات الدولة الأخرى من مؤسسة الرئاسة والمجلس النيابي وقبل ذلك وضع دستور يمثل آمال كل المواطنيين...فهناك دراسة أمريكية تشير إلى أن قرابة ٨٥ حالة إنتقال سياسي بين عامي ١٩٧٤- ١٩٩٩ فإن هناك ٣٠ حالة أدت إلي ديمقراطية حقيقية مقابل ٣٤ حالة عادت فيها البلاد إلى الحكم المطلق و١٢ حالة انتقلت فيها البلاد إلى ديمقراطية شكلية.

ومن هنا تأتي خطورة هذه المرحلة وضرورة إدراتها بحنكة وحكمة حتي لانعود جمعياً للمربع رقم صفر ،وأقوى عامل مساعد في هذا هو إتفاق الثوار والأحزاب والقوى المدنية علي ضرورة إستكمال أهداف الثورة وبناء مؤسسات الدولة القائمة علي الديمقراطية والحرية والمساواة.

ما تقدم كان عرض لأهم الأخطاء الإستراتيجية الواجب علي الثوار والقوى الثورية والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني تجاوزها بشكل سريع حتي تتمكن شعوب وبلدان الربيع العربي من دخول مرحلة جديدة تحقق فيها أهداف الثورة الحقيقية،ولكن هناك بطبيعة الحال جملة من الأخطاء التكتيكية والتي تعد أقل خطورة ولكن ينبغي أيضاً تجاوزها علي المدى البعيد مثل:

- ضمور ثقافة وقيم المواطنة بين العديد من الجماهير وبعض القوي الثورية : وهذا يحتاج إلى معالجة فكرية وميدانية.

-عدم وجود أطر سياسية تستوعب الشباب الذين شاركوا في الثورة :وهذا أدي إلى تشرذم القوة الثورية .
- جود قصور في ثقافة الثوارعن أساليب إدارة الدولة :من محليات ومحافظات وأنظمة حكم محلي وهذا يحتاج إلى تدريب وممارسة حتي يتمكن هؤلاء الشباب من تولي زمام العمل في المرحلة القادمة.
وفي نهاية المطاف ينبغي علاج القصور الإستراتيجي والتكتكي بالتوازي لأن "الخطأ والجهل علي مستوي التكتيكات قد يكون محتملاً،أما علي مستوى الاستراتيجيات فيكون مؤلماً،وعلي مستوي فلسفة الفكرة فهو مهلك!

الفصل الثامن

نتائج الكتاب وتوصياته

ومع استعراض أهم ثمرات ثورات الربيع العربي علي المستوى الداخلي والإقليمي والدولي نكون قد وصلنا لنهاية هذا الكتاب الذي أرجو أن يكون فيه النفع والإفادة لحاضر الأمة العربية ومستقبلها،وأن يكون رسالة عرفان وتقدير مهداه لدماء الشهداء الزكية التي فتحت لنا وللأجيال القادمة مسارات الحرية والأمل، ورفعت عن كاهلنا أسر القهر والإستبداد.

حصاد الكتاب

ـ النتائج ـ

أهم النتائج التي يمكن الخروج بها من الكتاب :

١- الكرامة الإنسانية والحرية والمساواة قيم لايقبل البشر المقايضة عليها فهي قيم وجودية مرتبطة بتكوين الإنسان، تجري في عروقة ودمه،وبالتالي مراهنة الأنظمة المستبدة علي توفير الرخاء الإقتصادي مقابل التنازل عن الحريات والحقوق السياسية لن تفلح علي المدى البعيد في تسكين الشعوب والجماهير.

٢- الدين الإسلامي مقاصده الكبرى وفلسفته العليا قائمة علي تحرير الإنسان من شهواته وقيوده ومحاربة طواغيت الأرض الذي يظلمون الناس بغير بحق؛ فهو مع الإنسان حيثما رحل وارتحل، فالإسلام دين إنساني جاء رحمة للعالمين فكما قال أهل العلم **"الشريعةعدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها"**[١٣٠]، وهو مع قضايا المحرومين والمستضعفين وقيمه الكبرى خالده ومحفوظة بحفظ الله للقرآن الكريم فينبغي علي المسلمين أن يُظهروا هذا الجانب الحضاري لهذا الدين.

٣- الشباب هم ذخيرة الأمم ومستقبلها ؛فكما رأينا في طول الكتاب وعرضه مدى أهمية شريحة الشباب في تاريخ الأمة العربية والإسلامية وحاضرها ؛فهم كانوا حملة الدين وحراس القيم ووقود الثورات ضدا لطغاة علي مرالعصور ..وهكذا كانوا في ثورات الربيع العربي هم القاطرة التي جذبت الجماهير نحو شواطىء الحرية والمساواة والعدالة ،ولن أقول هنا أن نهتم بالشباب ونفتح لهم المجالات فهم قادرون بطاقاتهم وحماستهم على إنتزاع الفرص ؛وإنما علي المجتمع أن يستفيد منهم ويتعاون معهم حتي لانقع فيما يسمى صراع الأجيال.

٤- ثورات الربيع العربي لن تكون نهاية المطاف في المنطقة ؛فالأنظمة السياسية المستبدة الأخرى الموجودة في المنطقة وبحكم نفس العوامل التي أدتلقيام ثورات الربيع العربي فهي مرشحة في القريب العاجل لحدوث ثورات مماثلة لما وقع في بلدان الربيع العربي؛ لذلك ينبغي لها أن توفر الدم والعرق علي شعوبها ونفسها وتشرع في عمل إصلاحات حقيقية تلبي آمال الجماهير والشعوب

٥- تحطيم فكرة خنوع واستسلام الشعوب العربية: والتي سعت الأنظمة العربية المستبدة لتصديرها علي المستوى الداخلي لتوهين جهود المناضلين،وعلي المستوي العالمي لإقناع الرأي العام العالمي بأنهم يحكمون برضي هذا الشعوب عن حب وإقتناع ؛فبفضل الثورات العربية حصل تغير ملحوظ في الصورة النمطية عن الإنسان العربي في العديد من بلدان العالم سواء في الشرق أو الغرب.

١٣٠- ابن القيم: إعلام الموقعين ٣/٣

٦- سبب تخلف المنطقة العربية عن ركب الحضارة هو إستبداد الحكام وليس نقص الموارد و الأفكار والطاقات البشرية كما كان يروج المستبدون،وإنما الخلل كان في إنتشار الفساد والقهر وغياب الحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة.

٧- إرتفاع مستوي الوعي الجماهيري العربي بالقضايا المركزية للأمة والرئيسية، فطالما شغلت الأنظمة المستبدة المجتمعات بقضايا هامشية لصرف نظرها عن المطالبة بحقوقها السياسية والإقتصادية فقد تم إغراق الرأي العام العربي في قضايا فرعية لاتغن ولاتسمن من جوع ،من خلال سياسية قائمة علي فلسفة (فرق تسد).
ففي الحالة المصرية راهن النظام علي توتيرالعلاقات بين المسيحيين والمسلمين حتي يبدو هو حامي حمي الديار وصمام الأمان للمجتمع ،ومع بزوغ فجر الثورات العربية انتقل الحوار المجتمعي نحو قضايا تطبيق العدالة وماهية الحرية المطلوبة وما ية شكل الدستور القادم وماهية مجالات التنمية الواجب البداية بها،ويكفي أن نعرف أن الشعوب العربية لأول مرة في حياتها تشاهد إنتخابات رئاسية جادة يقوم فيها المرشحين بعرض برامجهم الإنتخابية لنيل رضي الجمهورعبر المناظرات وحلقات النقاش .

٨- كشفت ثورات الربيع العربي عن مدى تعاطف شعوب العالم الحرة مع قضايا العرب العادلة ؛فما ظهر من تأيد للثورات العربية عند الرأي العام العالمي في الشرق والغرب كشف عن كم المشترك الإنساني بين الشعوب والمجتمعات العالمية وهذا جانب مهم لابد أن نستفاد به في الترويج للقضايا العربية المركزية مثل قضية فلسطين والعدوان الإسرائيلي علي الأراضي العربية.

٩- أنتجت ثورات الربيع العربي العديد منالمنظمات المجتمع المدني القوية والشابة والتي انطلقت في التشكيل عقب كسرأغلال الإستبداد والقهر التي كانت تعوق طاقات المجتمعات وتمنع تكوين هذه المنظمات بشكل سلس وسريع .

١٠ - كشف الكتاب عن أهمية إمتلاك وسائل إعلام جماهيرية صادقة ومتواصلة مع الجمهور تناقش معاهم القضايا الرئيسية للمجتمعات وتنقل همومهم وآمالهم ،فمن خلال تجربة الشباب في التواصل مع الجماهير اتضح أهمية هذه الوسائل الإعلامية في حشد الجماهير.

١١- أهمية دور المرأة العربية في التغيير والنهوض فقد كانت حاضرة في المشهد الثوري بقوة جنباً إلى جنب مع الرجل منذ لحظات الحشد الجماهيري الأولي عبر الإعتصام في الميادين ويكفي أن تحصل المناضلة اليمنية (توكل كريمان) علي جائزة نوبل للسلام هذا العام تقديراً لجهودها الجليلة في عملية التغيير في اليمن ،وكذلك بات اسم (أسماء محفوظ ،وإسراء عبد الفتاح؛سالي زهران؛هبة رؤف عزت؛كريمة الحفناوي...) وغيرهن من النساء والفتيات رموزاً ثورية تخطي أثرها البيئة العربية نحو الفضاء الإنساني.

خلاصة الكتاب

كم الفوائد التي عادت عليّ من إعداد هذا الكتاب بالغة التعدد والعمق؛ فقد اطلعت علي العديد من المراجع وقمت بالعديد من المقابلات والحوارات واستمعت إلى عدد غير قليل من المحاضرات والمواد الأرشيفية فيما يتعلق بالثورات علي مستوى عالم الأفكارأوعالم الإجراءات والمآلات الكبرى.
وإنطلاقاً مما ورد في هذا الكتاب أُسجل هنا أهم الخلاصات :

١ – **ضرورة البدء في عمل دراسات عميقة تهتم بمقاصد الإسلام** من حيث نظرته للتغيير ومقاومة الظلم والبغي ،من خلال الغوص والإبحار حول نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية؛ ومن أهم القضايا التي تحتاج لهذا المجهود قضية الكرامة الإنسانية والحرية والعدالة والمساواة،من أجل عمل تصور حضاري مستمد من الإسلام يُقارب هذه القضايا بشكل عالمي وإنساني

٢ – **البدء في مراجعة التراث الإسلامي الفقهي والتاريخي وتنقيته مما يشغب علي قيم الإسلام الكبرى** مثل تطبيق الشوري والعدالة والاجتماعية ومحاولة الفصل بين ما هو نص مقدس وماهو فعل تاريخي يتناسب مع ظروف المكان والزمان الذي وقع فيه ،وخاصةً ما يتعلق بقضايا الشورى والمساواة والعدالة والشرعية الدستورية

٣ –**لابد من توثيق أحداث ثورات الربيع العربي بكامل تفاصيلها بداية** من مقدماتها إلى لحظات سقوط الأنظمة مروراً بالفترات الإنتقالية وإنتهاءً بالمؤسسات الحكومية التي تكونت بعد ذلك بإرادة الشعوب حتي ندرك الأبعاد السوسيولوجية لهذه الثورات

٤- **لابد من عمل دراسات سياسية واجتماعية وإقتصادية تتناول الأفاق المستقبلية** لهذه الثورات في محاولة لترشيدها وتصويب خطواتها وحفظها من الإنزاق في الخلل والتعثر حتي لانكررأخطاء الماضي بإنتاج أنظمة إستبدادية تعود بنا لمربع ما قبل الثورة.

٥- **لابد من إطلاق مشاريع أكاديمية وميدانية تتناول كيفية تفعيل دور منظمات المجتمع** في مراقبة السلطة السياسية والتشريعية والتنفيذية ومدى وفاءها لرغبات وطموحات الشعوب نحو التنمية والتقدم ،وأخص بذلك البحوث والمشاريع الخاصة بتقوية دور المجتمع المدني والوقف الإسلامي وجمعيات التوعية السياسية والرقابة المجتمعية علي مؤسسات الدولة.

قائمة المراجع

١- ابن كثير الدمشقي– تفسير ابن كثير –دار طيبة للنشر-الرياض.

٢-ابن هشام البصري- السيرة النبوية لابن هشام – دار النفائس-بيروت.

٣- ابن القيم الجوزيه – إعلام الموقعين عن رب العالمين – دار المنار- القاهرة.

٤- ابن حجر العسقلاني -فتح الباري بشرح صحيح البخاري- دار الكتب العلمية -بيروت.

٥- أبو يعرف المرزوقي-استئناف العرب لتاريخهم الكوني-الدار العربية للعلوم- ٢٠١٢

٦- ابراهيم الدسوقي شتا- الثورة الإيرانية –الزهراء للإعلام العربي.

٧- أحمد الريسوني – الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية - دار السلام-القاهر.

٨- أحمد عبد الحكيم وآخرون- حرب اللاعنف- الدار العربية للعلوم -بيروت.

٩- أحمد سويلم العمري – أصول النظم السياسية – ١٩٧٦

١٠- الشبكة العربية للمنظمات الأهلية - الشباب فى منظومة المجتمع المدني- القاهرة.

١١- الكواكبي- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد-دار كلمات عربية.

١٢- بشير موسي نافع –الأسلاميون- الدار العربية للعلوم ناشرون –بيروت.

١٣- تقرير التنمية الإنسانية العربية –برنامج الأمم المتحدة الإنمائي-٢٠٠٩.

١٤- جاسم سلطان- قوانين النهضة القواعد الاستراتيجية- المنصورة- أم القرى.

١٥- جاسم سلطان- التفكير الإستراتيجي –مكتبة أم القري –المنصورة- ٢٠٠٥

١٦- حاكم المطيري- تحرير الإنسان وتجريد الطغيان-المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

١٧- خالد محمد خالد - رجال حول الرسول- المقطم للنشر والتوزيع- مصر-٢٠٠٠.

١٨- راشد الغنوشي – الديمقراطية وحقوق الإنسان في الإسلام –مركز الجزيرة للدراسات الدوحة ٢٠١٢

١٩- سيد قطب-العدالة الاجتماعية في الإسلام-دار الشروق-١٩٩٣

٢٠- صفي الرحمن المباركفوري-الرحيق المختوم- دار الوفاء-المنصورة ٢٠٠٤

٢١- طه جابر العلواني – لا إكراه في الدين – مكتبة الشروق الدولية –القاهرة ٢٠٠٣

٢٢- عصام تليمة- أحاديث الجمعة:حسن البنا –دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة ٢٠٠٥

٢٣- عبد الوهاب خلاف – علم أصول الفقة – دار القلم الكويت ١٩٨٨

٢٤- عبد الله النفيسي وأخرين – الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية –مكتبة مدبولي – القاهرة

٢٥- علي عزت بيغوفيتش – عوائق النهضة الإسلامية - جمعية قطر الخيرية. ١٩٩٧

٢٦- عبد الرحمن حللي- المجتمع العربي قبل الإسلام- دراسة منشورة علي الإنترنت.

٢٧-علي شريعي –دين ضد الدين - دار الأمير للثقافة والعلوم – بيروت.
٢٨- غازي اسماعيل – الرأي العام والعلاقات العامة – دار البشير – عمان -١٩٨٨
٢٩- ماهر تليمه- ومن وحي الثورة-مكتبة جزيرة الورد-القاهرة-٢٠١١
٣٠- محمد فتح الله كولن- محمد مفخرة الإنسانية- دار النيل للطباعة والنشر- ٢٠٠٩
٣١- محمد سليم العوا- في النظام السياسي للدولة الإسلامية – دار الشروق – القاهرة ٢٠٠٨
٣٢- محمد سليم العوا – الفقه الإسلامي في طريق التجديد-دار سفير-القاهرة- ١٩٩٨
٣٣- محمد رشيد رضا – تفسير المنار – الهيئة المصرية العامة للكتاب-١٩٩٠
٣٤- محمد عمارة-الإسلام والثورة –دار الشروق – القاهرة ١٩٨٨
٣٥- محمد عمارة- مسلمون ثوار- دار الشروق- القاهر١٩٨٨
٣٦- محمد عمارة-الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري-دار المستقبل العربي.
٣٧- محمد توفيق محمد سعد – فقة تغيير المنكر –وزارة الأوقاف القطرية.
٣٨- محمد الغزالي – هذا ديننا –إدارة إحياء التراث – الدوحة.
٣٩- محمد أبوزهرة-تنظيم الإسلام للمجتمع - دار الفكر العربي –القاهرة
٤٠- محمد خاتمي-الديمقراطية وحاكمية الأمة-دار الفكر-دمشق- ٢٠٠٣
٤١- محمود الجارحي-الأعمال الفنية غير التقليدية فى الفن المصرى القديم-جامعة حلوان.
٤٢- مجلة الديمقراطية –القاهرة – عدد٤٦-إبريل ٢٠١٢
٤٣- مجلة الأزهر الشريف – القاهرة -عدد شهر أكتوبر- ٢٠١٢
٤٤- مجلة وجهات نظر – القاهرة – العدد ١٤٥- ٢٠١١
٤٥- مجلة وجهات نظر- القاهرة – العدد ١٤٦-٢٠١١
٤٦- مجموعة مؤلفين-إشكالية التنمية ووسائل النهوض-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر ٢٠٠٨
٤٧- مجموعة مؤلفين-يوميات الثورة المصرية-الدار العربية للعلوم والنشر- بيروت ٢٠١١
٤٨- مصطفي محمود-أكذوبة اليسار الإسلامي-دار المعارف-القاهرة- ١٩٩٥
٤٩- مصطفي محمد حميداتو – عبد الحميد بن باديس – كتاب الأمة – الدوحة ١٩٩٧
٥٠- مناع القطان – مباحث في علوم القرآن – مؤسسة الرسالة -١٩٨٣
٥١- منشورات حزب التحرير - كتاب الدولة الإسلامية
٥٢- ورقة معلومات-ندوة ثورة الشعب في تونس-المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسيات-الدوحة٢٠١١.
٥٣- وليد عبد الحي – انعكاسات العولمة علي الوطن العربي –الدار العربية للعلوم والنشر٢٠١١

٥٤- ياسر الغرباوي – حركات التغيير والحراك الجماهيري – دار مراصد – الإسكندرية – ٢٠٠٧
٥٥- يوسف القرضاوي – ملامح المجتمع المسلم –مكتبة وهبة- القاهرة -١٩٩٣
٥٦- يوسف القرضاوي –واجب الشباب المسلم اليوم – دار الصحوة للنشر – القاهرة ١٩٨٨
٥٧- يوسف محمد عبيدان – مبادىء العلوم السياسية- جامعة قطر ١٩٩٦
٥٨- القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٦.

مـقـابـلات شـخـصـيـة

١- مقابلة شخصية مع أ. حسن بن حسن- الدوحة – قطر ٢٠١٠

٢- مقابلة شخصية مع م. وائل عادل- المسئول الإعلامي بأكاديمية التغيير- الدوحة ٢٠٠٩

٣- مقابلة شخصية مع أ. أنس حسن- أحد مؤسسي شبكة رصد - الدوحة – ٢٠١١

٤- مقابلة شخصية مع أ.أحمد عاشور- مؤسس شبكة الجزيرة توك-الدوحة-٢٠١١.

٥- مقابلة شخصية مع أ.عبد الفتاح فايد –مرسل و مدير مكتب الجزيرة في القاهرة – الدوحة –نوفمبر ٢٠١١

محاضرات عـــامة

١- محاضرة د.مصطفي المرابط –مدير مركز الجزيرة للدراسات سابقاً- الدوحة – قطر ٢٠٠٩

٢- محاضرة د. جاسم سلطان عن التخطيط الإستراتيجي– الدوحة.

٣ - محاضرة د.محمد مختار الشنقيطي –عن الشاعر محمد إقبال – الدوحة.

الـفـــهـــرس

- مقدمة ٢

- تمهيد ٣

- تعريف بأهم المصطلحات المستخدمه في الكتاب ٦

- الفصل الأول : الإسلام والثورة ٨

- الفصل الثاني : أثرالإسلام في تغييرالمجتمعات والشعوب ٣٦

- الفصل الثالث: الإسلام والشباب ٦٠

- الفصل الرابع : الشباب وثورات الربيع العربي ٧٠

- الفصل الخامس : الفنون وثورات الربيع العربي ١٠٩

- الفصل السادس: بواعث ومظاهر ربيع الثورات العربي ١٢٢

- الفصل السابع : حصاد وتحديات ثورات الربيع العربي ١٢٨

- الفصل الثامن : نتائج وتوصيات الكتاب ١٤٠

- المراجع ١٤٥